بحث غزوة الحديبية

إعداد الباحث

د. سالم أحمد سلامة

أستاذ الحديث المشارك بكلية أصول الدين

الجامعة الإسلامية . غزة

١٤٢١ - ٢٠٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

غزوة صلح الحديبية[1]

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، فصلوات الله وسلامه وبركاته عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون.)[2]

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً .)[3]

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً .) [4]

فقد طُلب إليَّ أن أكتب في صلح الحديبية ، وفتح مكة ، وذلك ليدرَّس لطلبة الجامعة الإسلامية بغزة ، فقمت بإعداد هذه الدراسة عن صلح الحديبية ، وستتلوها دراسة فتح مكة المكرمة بإذن الله تعالى .

وأحببت أن تكون الدراسة تحليلية ، وموضوعية ، مستنبطاً منها ما ينفعنا في ديننا ودنيانا ، معلقاً على بعض المواقف الواردة في السيرة المشرفة . وكلا وحاشا لله أن أجعل هذه الدراسة مقارنة مع شيء آخر من مثل الاتفاقيات الحادثة في أيامنا هذه ، وما ذاك إلا لأنه لا يجوز بحال من الأحوال أن يقارن ما فعله النبيﷺ بإذن من الله سبحانه وتعالى ، بما فعله البشر . ألم تر إلى قول الشاعر:

[1] – الحديبية بضم الحاء وفتح الدال ، وياء ساكنة وباء موحدة مكسورة ، وياء اختلفوا فيها : فمنهم من شددها ، ومنهم من خففها ، فروى الشافعي رضي الله عنه أنه قال : الصواب تشديد الحديبيَّة ، وتخفيف الجعرانة ، وأخطأ من نص على تخفيفها . وقيل : كل صواب . أهل المدينة يثقلونها وأهل العراق يخففونها . وهي قرية متوسطة ليست بالكبيرة ، بينها وبين مكة مرحلة واحدة ، وقيل سميت ببئر هناك ، وقيل سميت بشجرة حدباء كانت في ذلك الموضع . وهي ما تعرف اليوم باسم الشميسان . معجم البلدان لياقوت الحموي ، دار صادر بيروت ٢٢٩/٢ بتصرف .

[2] – سورة آل عمران آية رقم ١٠٢.

[3] – سورة النساء آية رقم ١ .

[4] – سورة الأحزاب آية رقم ٧٠-٧١ .

ألم تر أن السيف يزري بقدره

إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

ولكني أحببت أن أكتب لأبنائنا الطلبة ، وأن أنوه لهم على بعض النقاط التي قد يستفيدون منها ، حتى يتبين لهم مدى أهمية التمسك بسنة المصطفى ﷺ وكم فيها من الكنوز التي نحن في أمس الحاجة إليها في أيامنا هذه ، وليعلموا أن ديننا هو حبل الله المتين الذي يجب أن نتمسك به حتى نخرج من وهدتنا ، وننجوا من كيد أعدائنا ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

سبب التسمية بالحديبية :

قوله : (زمن الحديبية) تقدم ضبط الحديبية في الحج :

١- وهي بئر سمي المكان بها .
٢- وقيل شجرة حدباء صغرت وسمي المكان بها . قال المحب الطبري .
٣- الحديبية قرية قريبة من مكة أكثرها في الحرم

سبب الغزوة :

ووقع في رواية ابن إسحاق في المغازي عن الزهري " خرج عام الحديبية يريد زيارة البيت لا يريد قتالا " ووقع عند ابن سعد " أنه ﷺ خرج يوم الاثنين لهلال ذي القعدة " زاد سفيان عن الزهري في الرواية الآتية في المغازي وكذا في رواية أحمد عن عبد الرزاق " في بضع عشرة مائة ، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة .

فغزوة صلح الحديبية كانت في السنة السادسة للهجرة ، وسنتعرض إليها بالدراسة والتحليل الذي يفيدنا في تخطي المرحلة التي يمر بها شعبنا الفلسطيني العربي المسلم .

أخرج البخاري رحمه الله في صحيحه : عَنْ قَتَادَةَ قَالَ سَأَلْتُ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ اعْتَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ رَدُّوهُ وَمِنْ الْقَابِلِ عُمْرَةَ الْحُدَيْبِيَةِ وَعُمْرَةً فِي ذِي الْقَعْدَةِ وَعُمْرَةً مَعَ حَجَّتِهِ حَدَّثَنَا هُدْبَةُ حَدَّثَنَا هَمَّامٌ وَقَالَ اعْتَمَرَ أَرْبَعَ عُمَرٍ فِي ذِي الْقَعْدَةِ إِلَّا الَّتِي اعْتَمَرَ مَعَ حَجَّتِهِ عُمْرَتَهُ مِنْ الْحُدَيْبِيَةِ وَمِنْ الْعَامِ الْمُقْبِلِ وَمِنْ الْجِعْرَانَةِ حَيْثُ قَسَمَ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ وَعُمْرَةً مَعَ حَجَّتِهِ."[٥]

---

[٥] – صحيح البخاري ، كتاب الحج ، باب كم اعتمر النبي ﷺ ، رقم الحديث ١٧٨٠ ، وفي المغازي ، باب غزوة الحديبية رقم ٤١٤٨ ، وصحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب بيان عدد عمر النبي ﷺ وزمانهن ، رقم ١٢٥٣ ، وأبو داود في كتاب الحج ، باب العمر رقم الحديث ١٩٩٤ ، والترمذي في كتاب الحج ، باب ما جاء في كم حج النبي ﷺ رقم ٨١٦ ، وأحمد في المسند ١٣٤/٣ ، ٢٥٦ ، أرقام الحديث ١١٩٢٤ ، ١٣٠٧٦ ، ١٣١٩٢ ، والدارمي

هذا قول الجمهور وقد شذ عنه في رواية عروة بن الزبير فيما رواه ابنه هشام بن عروة عنه :" أن النبي ﷺ خرج إلى الحديبية في رمضان وكانت الحديبية في شوال ."

خرج رسول الله ﷺ في ذي القعدة من السنة السادسة معتمراً لا يريد حرباً. واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه ؛ وهو يخشى من قريش –الذي صنعوا– أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت ، قال ابن اسحق رحمه الله : " ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة شهر رمضان وشوالا (بعد غزوة بني المصطلق وما. فأبطأ عليه كثير من الأعراب . وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب ؛ وساق معه الهدي، وأحرم بالعمرة ، ليأمن الناس من حربه ، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له .

عدد المسلمين في الغزوة : على ثلاثة أقوال :

١– وَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُعَاذٍ حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانَ أَصْحَابُ الشَّجَرَةِ أَلْفًا وَثَلَاثَ مِائَةٍ وَكَانَتْ أَسْلَمُ ثُمْنَ الْمُهَاجِرِينَ تَابَعَهُ مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ." ٦

٢– حَدَّثَنَا عَلِيٌّ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ قَالَ عَمْرٌو سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ وَكُنَّا أَلْفًا وَأَرْبَعَ مِائَةٍ وَلَوْ كُنْتُ أُبْصِرُ الْيَوْمَ لَأَرَيْتُكُمْ مَكَانَ الشَّجَرَةِ تَابَعَهُ الْأَعْمَشُ سَمِعَ سَالِمًا سَمِعَ جَابِرًا أَلْفًا وَأَرْبَعَ مِائَةٍ." ٧

٣– أخرج البخاري في صحيحه : حَدَّثَنَا يُوسُفُ بْنُ عِيسَى حَدَّثَنَا ابْنُ فُضَيْلٍ حَدَّثَنَا حُصَيْنٌ عَنْ سَالِمٍ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ فَتَوَضَّأَ مِنْهَا ثُمَّ أَقْبَلَ النَّاسُ نَحْوَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَكُمْ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ بِهِ وَلَا نَشْرَبُ إِلَّا مَا فِي رَكْوَتِكَ قَالَ فَوَضَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ فِي الرَّكْوَةِ فَجَعَلَ

في المناسك ، باب في حج النبي ﷺ حجة واحدة ، رقم الحديث ١٧٢١ .

[٦] – صحيح البخاري ،كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية حديث رقم ٤١٥٥ ، ومسلم في كتاب الإمارة ، باب استحباب مبايعة الإمام عند إرادة القتال ، وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة رقم ١٨٥٧ .

[٧] – صحيح البخاري ،كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية حديث رقم ٤١٥٥ ، ومسلم في كتاب الإمارة ، باب استحباب مبايعة الإمام عند إرادة القتال ، وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة رقم ١٨٤٩ ، ١٨٥٣ ، ١٨٥٦ .

الْمَاءُ يَفُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعُيُونِ قَالَ فَشَرِبْنَا وَتَوَضَّأْنَا فَقُلْتُ لِجَابِرٍ كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ قَالَ لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً ."[8]

والجمع بين هذا الاختلاف : قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح : " والجمع بين هذا الاختلاف أنهم كانوا أكثر من ألف وأربعمائة ، فمن قال ألفاً وخمسمائة جبر الكسر ، ومن قال ألفاً وأربعمائة ألغاه ويؤيده قوله في الرواية الثالثة من حديث البراء :" وألفاً وأربعمائة أو أكثر." واعتمد هذا الجمع النووي .

وأما البيهقي فمال إلى الترجيح ، وقال : إن رواية من قال ألف وأربعمائة أصح ، ثم ساقه من طريق أبي الزبير ومن طريق أبي سفيان كلاهما عن جابر كذلك ، ومن رواية معقل بن يسار وسلمة بن الأكوع ، والبراء بن عازب ، ومن طريق قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبيه .

قلت (القول للحافظ ابن حجر) : ومعظم هذه الطرق عند مسلم ، ووقع عند ابن سعد في حديث معقل ابن يسار زهاء ألف وأربعمائة ، وهو ظاهر في عد التحديد ، وأما قول عبد الله بن أبي أوفي ألفاً وثلاثمائة ، فيمكن حمله على ما اطلع هو عليه واطلع غيره على زيادة ناس لم يطلع هو عليهم ، والزيادة من الثقة مقبولة ، ويمكن أن يقال : العدد الذي ذكره جملة من ابتدأ الخروج من المدينة والزائد تلاحقوا بهم بعد ذلك . أو العدد الذي ذكره هو عدد المقاتلة والزيادة عليها من الأتباع من الخدم والنساء والصبيان الذين لم يبلغوا الحلم.

وأما قول ابن إسحاق : أنهم كانوا سبعمائة فلم يوافق عليه ، لأنه قاله استنباطاً من قول جابر :" نحرنا البدنة عن عشرة " وكانوا نحروا سبعين بدنة ، وهذا لا يدل على أنهم لم ينحروا غير البدن ، مع أن بعضهم لم يكن أحرم أصلاً ، وفي حديث المسور ومروان أنهم خرجوا مع النبي ﷺ بضع عشرة مائة [9]، فيجمع أيضاً بأن الذين بايعوا كانوا كما

[8] – صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية حديث رقم ٤١٥٢ ، ٤١٥٣ ومسلم في كتاب الإمارة ، باب استحباب مبايعة الإمام عند إرادة القتال ، وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة رقم ١٨٥٤ ، ١٨٥٥ ، والإمام أحمد في المسند رقم الحديث ٣٦١٦ ، ١٣٩٩٧ ، ١٤٤٠٥ ، والدارمي في المقدمة ، باب ما أكرم الله النبي من تفجير الماء من بين أصابعه ، رقم الحديث ٢٧ .

[9] – رواية البخاري "عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ يَزِيدُ أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ قَالا خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ فِي بِضْعَ عَشْرَةَ مِائَةً مِنْ أَصْحَابِهِ فَلَمَّا أَتَى ذَا الْحُلَيْفَةِ قَلَّدَ الْهَدْيَ وَأَشْعَرَهُ وَأَحْرَمَ مِنْهَا بِعُمْرَةٍ وَبَعَثَ عَيْنًا لَهُ مِنْ خُزَاعَةَ وَسَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى كَانَ بِغَدِيرِ الْأَشْطَاطِ أَتَاهُ عَيْنُهُ قَالَ إِنَّ قُرَيْشًا جَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا وَقَدْ جَمَعُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنْ الْبَيْتِ وَمَانِعُوكَ فَقَالَ أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ أَتَرَوْنَ أَنْ أَمِيلَ إِلَى عِيَالِهِمْ وَذَرَارِيِّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّونَا عَنْ الْبَيْتِ فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَطَعَ عَيْنًا مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مَحْرُوبِينَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ خَرَجْتَ عَامِدًا لِهَذَا الْبَيْتِ لَا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ وَلَا حَرْبَ أَحَدٍ فَتَوَجَّهْ لَهُ فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ قَالَ امْضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ." صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية رقم الحديث٤١٧٨ ، ٤١٧٩ ، ٤١٨٠ ، ٤١٨١ ، وأبو داود في كتاب

تقدم ، وما زاد على ذلك كانوا غائبين عنها كمن توجه مع عثمان إلى مكة ، على أن لفظ البضع يصدق على الخمس والأربع فلا تخالف .

وجزم موسى بن عقبة بأنهم كانوا ألفاً وستمائة ، وفي حديث سلمة بن الأكوع عند ابن أبي شيبة : ألفاً وسبعمائة ، وحكى ابن سعد : أنهم كانوا ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين ، وهذا إن ثبت تحرير بالغ ، ثم وجدته موصولاً عن ابن عباس عند ابن مردويه ، وفيه رد على ابن دحية حيث زعم أن سبب الاختلاف في عددهم أن الذي ذكر عددهم لم يقصد التحرير ، وإنما ذكره بالحدس والتخمين ."[١٠]

حديث غزوة الحديبية

وأخرج الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه : "حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ قَالَ أَخْبَرَنِي الزُّهْرِيُّ قَالَ أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ عَنْ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ قَالَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتَرَةِ الْجَيْشِ فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ فَقَالَ النَّاسُ حَلْ حَلْ فَأَلَحَّتْ فَقَالُوا خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ قَالَ فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلِ الْمَاءِ يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ وَشُكِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَطَشُ فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ فَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ فَقَالَ إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَةِ وَمَعَهُمْ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنْ الْبَيْتِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمْ الْحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً

الجهاد باب صلح العدو ، رقم الحديث ٢٧٦٥ ، وفي كتاب السنة ، باب في الخلفاء ٤٦٥٥ ، والنسائي كما في تحفة الأشراف ٣٧٢/٨ ، والبيهقي في السنن ٢١٥/٥ ، ١٧٠/٧ ، ١٤٤/٩ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ١٠٩/١٠ ، والطبري ٧١/٢٨ ، ٩٧ ، ١٠١ ، وعبد الرزاق في المصنف رقم الحديث ٩٧٢٠ ، والطبراني في الكبير ١٣/٢٠ ، ١٤ ، ١٥ ٨٤٢ ، والبيهقي في دلائل النبوة ٩٩/٤ ، ١٠٨ ، والإمام أحمد في المسند ٣٢٨/٤-٣٣١ ، ٣٣١ ، ٣٣٤ .

[١٠] - فتح الباري ٤٤٠/٧-٤٤١ .

وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي وَلَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ فَقَالَ بُدَيْلٌ سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ قَالَ فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا قَالَ إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ وَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ أَيْ قَوْمِ أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ قَالُوا بَلَى قَالَ أَوَلَسْتُ بِالْوَلَدِ قَالُوا بَلَى قَالَ فَهَلْ تَتَّهِمُونِي قَالُوا لَا قَالَ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظَ فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي قَالُوا بَلَى قَالَ فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ اقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِيهِ قَالُوا ائْتِهِ فَأَتَاهُ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ أَيْ مُحَمَّدُ أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنْ الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَرَى وُجُوهًا وَإِنِّي لَأَرَى أَوْشَابًا مِنْ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ امْصُصْ بِبَظْرِ اللَّاتِ أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ فَقَالَ مَنْ ذَا قَالُوا أَبُو بَكْرٍ قَالَ أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ قَالَ وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ الْمِغْفَرُ فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ وَقَالَ لَهُ أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ فَقَالَ مَنْ هَذَا قَالُوا الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ فَقَالَ أَيْ غُدَرُ أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَّا الْإِسْلَامَ فَأَقْبَلُ وَأَمَّا الْمَالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ قَالَ فَوَاللَّهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ أَيْ قَوْمِ وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا فَقَالَ

رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ دَعُونِي آتِيهِ فَقَالُوا ائْتِهِ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا فُلَانٌ وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ فَابْعَثُوهَا لَهُ فَبُعِثَتْ لَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنْ الْبَيْتِ فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ رَأَيْتُ الْبُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنْ الْبَيْتِ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ فَقَالَ دَعُونِي آتِيهِ فَقَالُوا ائْتِهِ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا مِكْرَزٌ وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ مَعْمَرٌ فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ قَالَ مَعْمَرٌ قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَالَ سُهَيْلٌ أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ وَلَكِنْ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ وَاللَّهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ثُمَّ قَالَ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالَ سُهَيْلٌ وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنْ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ وَلَكِنْ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ الزُّهْرِيُّ وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ فَقَالَ سُهَيْلٌ وَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنْ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فَكَتَبَ فَقَالَ سُهَيْلٌ وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا قَالَ الْمُسْلِمُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ سُهَيْلٌ هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ قَالَ فَوَاللَّهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَجِزْهُ لِي قَالَ مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ قَالَ بَلَى فَافْعَلْ قَالَ مَا أَنَا بِفَاعِلٍ قَالَ مِكْرَزٌ بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ أَيْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ قَالَ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا قَالَ بَلَى قُلْتُ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ قَالَ بَلَى قُلْتُ فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا قَالَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي قُلْتُ أَوَلَيْسَ كُنْتَ

تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ قَالَ بَلَى فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ قَالَ قُلْتُ لَا قَالَ فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ قَالَ فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا قَالَ بَلَى قُلْتُ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ قَالَ بَلَى قُلْتُ فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا قَالَ أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ وَهُوَ نَاصِرُهُ فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قُلْتُ أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ قَالَ بَلَى أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ قُلْتُ لَا قَالَ فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ قَالَ الزُّهْرِيُّ قَالَ عُمَرُ فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا قَالَ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا قَالَ فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنْ النَّاسِ فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ حَتَّى بَلَغَ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَالْأُخْرَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ فَقَالُوا الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيِّدًا فَاسْتَلَّهُ الْآخَرُ فَقَالَ أَجَلْ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ وَفَرَّ الْآخَرُ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُ لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ قُتِلَ وَاللَّهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ ثُمَّ أَنْجَانِي اللَّهُ مِنْهُمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ الْبَحْرِ قَالَ وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّأْمِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُنَاشِدُهُ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا

أَرْسَلَ فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ ۞ إِلَيْهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ حَتَّى بَلَغَ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ وَلَمْ يُقِرُّوا بِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَيْتِ قَالَ أَبُو عَبْد اللَّهِ مَعَرَّةٌ الْعُرُّ الْجَرَبُ تَزَيَّلُوا تَمَيَّزُوا وَحَمَيْتُ الْقَوْمَ مَنَعْتُهُمْ حِمَايَةً وَأَحْمَيْتُ الْحِمَى جَعَلْتُهُ حِمًى لَا يُدْخَلُ وَأَحْمَيْتُ الْحَدِيدَ وَأَحْمَيْتُ الرَّجُلَ إِذَا أَغْضَبْتَهُ إِحْمَاءً وَقَالَ عُقَيْلٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ عُرْوَةُ فَأَخْبَرَتْنِي عَائِشَةُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُهُنَّ وَبَلَغْنَا أَنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَرُدُّوا إِلَى الْمُشْرِكِينَ مَا أَنْفَقُوا عَلَى مَنْ هَاجَرَ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ وَحَكَمَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ لَا يُمَسِّكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ أَنَّ عُمَرَ طَلَّقَ امْرَأَتَيْنِ قَرِيبَةَ بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ وَابْنَةَ جَرْوَلٍ الْخُزَاعِيِّ فَتَزَوَّجَ قَرِيبَةَ مُعَاوِيَةُ وَتَزَوَّجَ الْأُخْرَى أَبُو جَهْمٍ فَلَمَّا أَبَى الْكُفَّارُ أَنْ يُقِرُّوا بِأَدَاءِ مَا أَنْفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ وَالْعَقْبُ مَا يُؤَدِّي الْمُسْلِمُونَ إِلَى مَنْ هَاجَرَتْ امْرَأَتُهُ مِنْ الْكُفَّارِ فَأَمَرَ أَنْ يُعْطَى مَنْ ذَهَبَ لَهُ زَوْجٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مَا أَنْفَقَ مِنْ صَدَاقِ نِسَاءِ الْكُفَّارِ اللَّائِي هَاجَرْنَ وَمَا نَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْمُهَاجِرَاتِ ارْتَدَّتْ بَعْدَ إِيمَانِهَا وَبَلَغَنَا أَنَّ أَبَا بَصِيرِ بْنَ أَسِيدٍ الثَّقَفِيَّ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مُؤْمِنًا مُهَاجِرًا فِي الْمُدَّةِ فَكَتَبَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُهُ أَبَا بَصِيرٍ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ ." [١١]

الكلام على سند الحديث (إرساله أو رفعه) :

شرح الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح :

"قوله : (عن المسور بن مخرمة ومروان) أي ابن الحكم (قالا خرج) هذه الرواية بالنسبة إلى مروان مرسلة لأنه لا صحبة له ، وأما المسور فهي بالنسبة إلبه أيضا مرسلة لأنه لم يحضر القصة ، وقد تقدم في أول الشروط من طريق أخرى عن الزهري عن عروة " أنه سمع المسور ومروان يخبران عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم " فذكر بعض هذا الحديث ، وقد سمع المسور ومروان من جماعة من الصحابة شهدوا هذه القصة كعمر وعثمان وعلي والمغيرة وأم سلمة وسهل بن حنيف وغيرهم ، ووقع في نفس هذا الحديث شيء يدل على أنه عن عمر كما سيأتي التنبيه عليه في مكانه ، وقد روى أبو الأسود عن عروة هذه القصة فلم يذكر المسور ولا مروان لكن أرسلها ، وهي كذلك

[١١] – صحيح البخاري ،كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد ، والمصالحو مع أهل الحرب وكتابة الشروط ، رقم الحديث ٢٧٣١ ، ٢٧٣٢ ، وأحمد في المسند ٣٢٨/٤ ، ٣٣٢ .

في " مغازي عروة بن الزبير " أخرجها ابن عائذ في المغازي له بطولها ، وأخرجها الحاكم في " الإكليل " من طريق أبي الأسود عن عروة أيضا مقطعة .

لقد شاع بين العرب نبأ خرج النبي ﷺ وأصحابه معتمرين ولم يكن في هذا الخروج ما يدعو إلى الدهشة أو الاستغراب بين العرب الوثنيين عموماً ، لأن زيارة البيت – وخاصة في الأشهر الحرم – حق لكل إنسان مهما كان دينه أو لونه أو جنسه .. ذلك قانون غير مكتوب مجمع على العمل به بين جميع قبائل العرب . غير أن قريشاً تجاهلت هذا القانون الذي كان يجب أن تكون أول من يلتزم به ويحرص على تنفيذه ، لأنها حتى ذلك العام كانت السادن للكعبة ، والمسئول بين العرب عن جميع المشاعر التي يعظمها العرب في نسكهم ، ومطلوب منها إعطاء كل التسهيلات لمن جاء راغباً في زيارة البيت حتى ولو كان في حالة نزاع مسلح معها ، ما دام أنه لم يأت محارباً ، لأن لمنطقة الحرم قدسية عند العرب تجعل من المحرم تحريماً قاطعاً سفك أي دم وإنشاب أي حرب داخل حدوده . قال الواقدي :" ولما بلغ المشركين خروج رسول الله ﷺ إلى مكة راعهم ذلك ، وأجمعوا له ، وشاوروا فيه ذوي الرأي منهم ، فقالوا : يريد (أي النبي ﷺ) أن يدخل علينا في جنوده معتمراً ، فتسمع به العرب ، وقد دخل علينا عَنوَةً وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ، والله لا يمكن هذا أبداً ومنا عين تطرف ، فارتأوا رأيكم ، فأجمعوا أمرهم وجعلوه إلى نفر من ذويهم (صفوان بن أمية .. وسهيل بن عمرو .. وعكرمة بن أبي جهل)[١٢]

النبي ﷺ يجند الاستخبارات لمعرفة أخبار العدو:

وهاهو النبي ﷺ يأخذ الاحتياطات اللازمة لكل حدث يتوقعه فيما يستقبل من أحداث ، ففي ذي الحليفة كلف النبي ﷺ بسر بن سفيان الكعبي الخزاعي بأن يقوم بمهمة الاستخبارات في مكة ، وأمره بأن يتوجه إليها لينقل إليه كل أخبار القرشيين ، ما يقولونه وما يفعلونه كرد فعل لتلقيهم نبأ خروج المسلمين معتمرين .

وقد صدع بسر بن سفيان بأمر نبيه ، فتوجهه إلى مكة ، وما هي إلا أيام قلائل حتى كان فيها ، وظل بسر في مكة يرصد (بطريقه الخاص) حركات القرشيين ويحفظ ما يسمعه وما يراه ، وظل لعدة أيام عرف فيها كل ما يجب أن يعرفه رجل مكلف بمثل هذه المهمة الخطيرة التي كلف بها .

---

[١٢] – مغازي الواقدي ٥٧٩/٢ .

وقد بلغ رجل الاستخبارات النبوية في إنجاح مهمته إلى حدِّ المخاطرة بروحه، حيث صاحب الجيوش المشتركة (من القرشيين والأحلاف) في تحركاتها حتى استقرت في معسكرها الرئيسي في وادي بلدح[١٣] ، ولم يتركها إلا بعد أن رآها تقيم الأبنية وتضرب الخيام في هذا الوادي مصممة على صد المسلمين عن البيت بالقوة .

فقد توجه (بسر) بعد ذلك ليلتقي بالرسول ﷺ في ذات الأشطاط من وراء عسفان على مسافة غير بعيدة من حدود الحرم .[١٤]

قال الزهري : وخرج رسول ﷺ حتى إذا كان بعسفان [١٥] لقيه بشر بن سفيان الكعبي ، فقال : يا رسول الله ، هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل[١٦] ، قد لبسوا جلود النمور ، وقد نزلوا بذي طوى ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدًا. وهذا خالد بن الوليد في خيلهم ، قد قدموها إلى كراع الغميم [١٧]. قال : فقال رسول الله ﷺ : " يا ويح قريش ! لقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ؟ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة[١٨]. ثم قال " من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ " .. وأما الذي بعثه عينا لخبر قريش فاسمه بسر بن سفيان كذا سماه ابن إسحاق ، وهو بضم الموحدة وسكون المهملة على الصحيح .

النبي ﷺ يستشير أصحابه :

وتمشياً مع روح الشورى التي جاء بها ديننا الحنيف والمتمثلة في قول تعالى : " وشاورهم في الأمر" ، وكما هي عادة النبي ﷺ ، فقد جمع أصحابه حيث يعسكر في وادي عسفان وأطلعهم على حقيقة الموقف ، مشيراً إلى التطورات الخطيرة التي حدثت نتيجة تعنت قريش وإصرارها الذي تمثل بأجلى مظاهره في خروج حوالي ثمانية آلاف

---

[١٣] – بلدح بفتح أوله وسكون ثانيه ، قال في مراصد الاطلاع : واد قبل مكة من جهة الغرب .

[١٤] – انظر صلح الحديبية ، لمحمد أحمد باشميل ، الطبعة الأولى ١٩٧٠م ص ١٤٣-١٤٤ .

[١٥] – عسفان :بضم أوله وسكون ثانيه ثم فاء ، موضع بين مكة والمدينة على مرحلتين من مكة . انظر معجم البلدان ٤/١٢١-١٢٢ .

[١٦] – العوذ قال ابن منظور في لسان العرب في مادة عوذ :" الناقة إذا وضعت ولدها فهي عائذ ، وسميت عائذاً لأن ولدها يعوذ بها " وقال بعضهم :" ومعهم العوذ المطافيل " يريد النساء والصبيان. ٣/٤٩٨-٥٠١ ، وقال في مادة طفل :" والعوذ : الإبل التي وضعت أولادها هديثا ، ويقال أطفلت فهي مُطفِل ومُطفِلة يريد أنهم جاؤوا بأجمعهم كبارهم وصغارهم والمطافيل ذوات الأطفال . انظر اللسان ١١/٤٠٢ .

[١٧] – كراع الغميم : بالضم وآخره عين مهملة ، موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة ، وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال . معجم البلدان٤/٤٤٣ .

[١٨] – السالفة : ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط إلى قَلْتِ الترقوة . الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري٤/١٣٧٧ يعني : أو أقتل . فإنها لا تنفرد إلا بالقتل .

مقاتل إلى وادي بلدح تصحبهم نساؤهم وأطفالهم، وفي مرابطة مائتي فارس على مقربة من المسلمين في كراع الغميم. فقام أبو بكر الصديق ﷺ فقال : الله ورسوله أعلم ، نرى يا رسول الله أن نمضي لوجهنا ، فمن صدنا عن البيت قاتلناه . فقال رسول الله ﷺ : " فإن خيل قريش فيها خالد بن الوليد بالغميم". كما تكلم غير أبي بكر من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وتبين للنبي ﷺ أن جميع المسلمين موافقون على المضي نحو غايتهم وهي زيارة البيت الحرام ، وأنهم مستعدون للصدام إذا ما ألجأتهم قريش إلى ذلك بإصرارها على منعهم من دخول الحرم.

وفي رواية أحمد أيضا " أترون أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم فإن قعدوا قعدوا موتورين محروبين ، وإن يجيئوا تكن عنقا قطعها الله " ونحوه لابن إسحاق في روايته في المغازي عن الزهري ، والمراد أنه ﷺ استشار أصحابه هل يخالف الذين نصروا قريشا إلى مواضعهم فيسبي أهلهم ، فإن جاءوا إلى نصرهم اشتغلوا بهم وانفرد هو وأصحابه بقريش ، وذلك المراد بقوله : " تكن عنقا قطعها الله " فأشار عليه أبو بكر الصديق بترك القتال والاستمرار على ما خرج له من العمرة حتى يكون بدء القتال منهم ، فرجع إلى رأيه . وزاد أحمد في روايته " فقال أبو بكر : الله ورسوله أعلم يا نبي الله ، إنما جئنا معتمرين إلخ "

النبي ﷺ يغير طريقه إلى مكة ليفاجأ الكفار: (عنصر المفاجأة):

ومع كره النبي ﷺ للحرب وعدم رغبته في خوضها مع قريش ، فقد أدخل في حسابه أن قريشا قد تقدم على منع المسلمين من الوصول إلى البيت الحرام ، وقد تتحرش بهم ، إلا أنه ﷺ قرر أن يتحاشى الصدام المسلح مع قومه ما أمكنه ذلك حرصاً على حقن الدماء خاصة في تلك الظروف التي لم يأت فيها لحرب أو قتال . ولذلك قرر أن لا يمر في طريقه إلى مكة بالطريق الرئيسي الذي يرابط فيه خالد بن الوليد .غير أن خالد قد سار في طريق التحدي بفرسانه المائتين بسرعة مذهلة ، وبصورة جعلت النبي ﷺ وأصحابه أمام امتحان صعب للغاية. فقد تحرك بفرسانه من كراع الغميم إلى وادي عسفان في صورة المعترض المتحدي ، حتى بالغ في التحدي والاستفزاز إلى أن وقف بخيالته المائتين بين المسلمين وبين القبلة وقت أداء الصلاة في عسفان مستفزاً بذل مشاعرهم ومستعرضاً عضلات قريش ، ومدخلاً في روع المسلمين بأن صنيعه هذا هو أحد مظاهر قوة قريش العسكرية الضاربة القادرة على منع المسلمين من دخول مكة في

أية صورة كانت .

وإزاء هذا التصرف من خالد ، أمر النبي ﷺ قائد سلاح فرسان المسلمين عبَّاد بن بشر أن يقف بفرسانه إزاء فرسان خالد لصد أية محاولة قد يقوم بها على حين غرة بالهجوم على المسلمين ، وبهذا أصبح خيالة الفريقين في حالة مواجهة كاملة .

قال الواقدي :" ودنا خالد بن الوليد في خيله حتى نظر إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، فصف خيله فيما بين رسول الله ﷺ وبين القبلة ، وهو مائتا فارس ، وأمر رسول الله ﷺ عباد بن بشر فتقدم في خيله فقام بإزائه ، فصف أصحابه ، فحانت صلاة الظهر فأذن بلال وأقام ، فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة وصف الناس خلفه يركع بهم ويسجد ، ثم سلم فقاموا ما كانوا عليه من التعبئة ، فقال خالد بن الوليد : قد كانوا على غرة لو كنا حملنا عليهم لأصبنا منهم ، ولكن تأتي الساعة صلاة هي أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم .."[١٩] ولكن النبي ﷺ أحبط محاولة خالد الغادرة إذ صلى بأصحابه صلاة الخوف.

ومع كل ما قام به خالد ، قرر النبي ﷺ أن يتحاشى الصدام مع خالد الذي قطع الطريق على المسلمين بخيله محاولاً استدراجهم إلى الاشتباك معه وجرهم إلى خوض حرب ما جاؤوا لها ولا يرغبون فيها . لذا قرر النبي ﷺ أن لا يمر بالطريق الرئيسي الذي سده خالد بمائين من الفرسان ، والذي لا يمكن للنبي وأصحابه أن يمروا به دون أن يشتبكوا مع خالد وفرسانه .[٢٠]

قال ابن اسحاق : فحدثني عبدالله بن أبي بكر – رضى الله عنهما – أن رجلا من أسلم قال: أنا يا رسول الله . قال : فسلك بهم طريقاً وعراً أجرل [٢١] بين شعاب . فلما خرجوا منه – وقد شق ذلك على المسلمين – وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي ، قال رسول الله ﷺ للناس: "قولوا نستغفر الله ونتوب إليه ". فقالوا ذلك. فقال : " والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها"[٢٢]

قال ابن شهاب الزهري : فأمر رسول الله ﷺ الناس فقال : " اسلكوا ذات اليمين " بين ظهري الحمض [٢٣] في طريق على ثنية المرار ، مهبط الحديبية من أسفل مكة ؛

[١٩] – المغازي للواقدي ٥٨٢/٢ .

[٢٠] – صلح الحديبية لمحمد أحمد باشميل ، ص ١٤٩–١٥٤ .

[٢١] – أجرل : وأرض جَرِلة ذات جراول وغلظ وحجارة .لسان العرب ، مادةجرل ١٠٧/١١–١٠٩

[٢٢] – يشير ﷺ إلى ما جاء في القرآن الكريم :" وادخلوا الباب سجدا وقولوا: حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين ، فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم ..." .سورة البقرة آية رقم ٥٨ .

[٢٣] – الحمض : بالفتح ثم السكون والضاء المعجمة ،وهو في اللغة كل نبت فيه ملوحة ترعاه الإبل وهو هنا اسم موضع وهو وادي حَمْض . معجم البلدان

فسلك الجيش ذلك الطريق . فلما رأت خيل قريش قترة [٢٤]الجيش ، قد خالفوا عن طريقهم ، رجعوا راكضين إلى قريش . وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك في ثنية المرار بركت ناقته . فقال الناس: خلأت [٢٥] الناقة . فقال " ما خلأت وما هو لها بخلق . ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ". – (وفي رواية البخاري : والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرما الله تعالى إلا عطيتهم إياها) . ثم قال للناس : " انزلوا" قيل له : يا رسول الله ، ما بالوادي ماء ينزل عليه . فأخرج سهما من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه . فنزل في قليب[٢٦]من تلك القلب ، فغرزه في جوفه ، فجاش بالرواء .."[٢٧]

قال ابن حجر : "قوله : (بركت به راحلته ، فقال الناس : حل حل) بفتح المهملة وسكون اللام . كلمة تقال للناقة إذا تركت السير ، وقال الخطابي: إن قلت حل واحدة فالسكون ، وإن أعدتها نونت في الأولى وسكت في الثانية، وحكى غيره السكون فيهما والتنوين كنظيره في بخ بخ ، يقال حلحلت فلانا إذا أزعجته عن موضعه .

قوله : (فألحت) بتشديد المهملة أي تمادت على عدم القيام وهو من الإلحاح . قوله : (خلأت القصواء) الخلاء بالمعجمة والمد للإبل كالحران للخيل ، وقال ابن قتيبة : لا يكون الخلاء إلا للنوق خاصة . وقال ابن فارس : لا يقال للجمل خلأ لكن ألح . والقصواء بفتح القاف بعدها مهملة ومد . اسم ناقة رسول الله ﷺ ، وقيل كان طرف أذنها مقطوعا ، والقصو قطع طرف الأذن يقال : بعير أقصى وناقة قصوى ، وكان القياس أن يكون بالقصر ، وقد وقع ذلك في بعض نسخ أبي ذر ، وزعم الداودي أنها كانت لا تسبق فقيل لها القصواء لأنها بلغت من السبق أقصاه . قوله : (وما ذاك لها بخلق) أي بعادة .

إرادة الله تتدخل لمنع دخول النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم مكة ، والحكمة في ذلك (بركت ناقة النبي ﷺ وتدخل القدر) :

قوله : (حبسها حابس الفيل) زاد إسحاق في روايته " عن مكة " أي حبسها الله

٣٠٥/٢ .

[٢٤] – قترة الجيش : وقترة جمعها قَتَر ، وهي الغبرة . وقيل هي غبرة يعلوها سواد كالدخان . لسان العرب مادة قتر ٧٠/٥–٧١ .

[٢٥] – خلأت : الخِلاء في الإبل كالحران في الدواب ،كما تقول للدابة حرنت أي بركت من غير علة أي لم تبرح مكانها ولا يقال خلأت إلا للناقة . انظر لسان العرب مادة خلأ ٦٨/١ بتصرف .

[٢٦] – القليب : جمعها قُلُب، وهي البئر قبل أن تطوى ، فإذا طويت فهي الطوي ، وقيل سميت قليباً لأن حافرها قلب ترابها . معجم البلدان ٣٨٦/٤

[٢٧] – سيرة ابن هشام .

عز وجل عن دخول مكة كما حبس الفيل عن دخولها . وقصة الفيل مشهورة ستأتي الإشارة إليها في مكانها ، ومناسبة ذكرها أن الصحابة لو دخلوا مكة على تلك الصورة وصدهم قريش عن ذلك لوقع بينهم قتال قد يفضي إلى سفك الدماء ونهب الأموال كما لو قدر دخول الفيل وأصحابه مكة ، لكن سبق في علم الله تعالى في الموضعين أنه سيدخل في الإسلام خلق منهم ، ويستخرج من أصلابهم ناس يسلمون ويجاهدون ، وكان بمكة في الحديبية جمع كثير مؤمنون من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، فلو طرق الصحابة مكة لما أمن أن يصاب ناس منهم بغيرعمد كما أشار إليه تعالى في قوله : (ولولا رجال مؤمنون) الآية .

ووقع للمهلب استبعاد جواز هذه الكلمة وهي " حابس الفيل " على الله تعالى فقال : المراد حبسها أمر الله عز وجل ، وتعقب بأنه يجوز إطلاق ذلك في حق الله فيقال حبسها الله حابس الفيل وإنما الذي يمكن أن يمنع تسميته سبحانه وتعالى حابس الفيل ونحوه ، كذا أجاب ابن المنير ، وهو مبني على الصحيح من أن الأسماء توقيفية . وقد توسط الغزالي وطائفة فقالوا : محل المنع ما لم يرد نص بما يشتق منه ، شرط أن لا يكون ذلك الاسم المشتق مشعرا بنقص، فيجوز تسميته الواقي لقوله تعالى : (ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) ولا يجوز تسميته البناء وإن ورد قوله تعالى : (والسماء بنيناها بأيد) .

وفي هذه القصة جواز التشبيه من الجهة العامة وإن اختلفت الجهة الخاصة ، لأن أصحاب الفيل كانوا على باطل محض وأصحاب هذه الناقة كانوا على حق محض ، لكن جاء التشبيه من جهة إرادة الله منع الحرم مطلقا ، أما من أهل الباطل فواضح ، وأما من أهل الحق فللمعني الذي تقدم ذكره .

وفيه ضرب المثل واعتبار من بقي بمن مضى . قال الخطابي : معنى تعظيم حرمات الله في هذه القصة ترك القتال في الحرم . والجنوح إلى المسالمة والكف عن إراقة الدماء . واستدل بعضهم بهذه القصة لمن قال من الصوفية : علامة الإذن التيسير وعكسه ، وفيه نظر .

قوله : (والذي نفسي بيده) فيه تأكيد القول باليمين فيكون أدعى إلى القبول ، وقد حفظ عن النبي ﷺ الحلف في أكثر من ثمانين موضعا قاله ابن القيم في الهدي .

قوله : (لا يسألونني خطة) بضم الخاء المعجمة أي خصلة (يعظمون فيها حرمات الله)

ما المقصود بحرمات الله في الحديث :

أ- أي من ترك القتال في الحرم ، ووقع في رواية ابن إسحاق " يسألونني فيها صلة الرحم " وهي من جملة حرمات الله .

ب- وقيل المراد بالحرمات حرمة الحرم والشهر والإحرام ، قلت (القائل ابن حجر رحمه الله): وفي الثالث نظر لأنهم لو عظموا الإحرام ما صدوه . قوله : (إلا أعطيتهم إياها) أي أجبتهم إليها .

وبعد أن تأكد لدى خالد بن الوليد أن النبيﷺ قد التف حوله ذات اليمين وأنه قد وصل بأصحابه إلى سهل الحديبية ، وأنه يعتزم دخول الحرم من ناحية الغرب ، أغاظه ذلك ، لأن النبي ﷺ بانحرافه ذات اليمين فوَّت على خالد الفرصة إذ نسف خطته المحكمة التي رسمها لملاقاة المسلمين وضربهم في موقع استراتيجي اختاره هو، وعسكر فيه بفرسانه لينقض منه على المسلمين حالة وصولهم . فكرَّ خالد بفرسانه راجعاً إلى مكة ليبلغ قادة قريش والذين خرجوا بجيوشهم الثمانية الآلاف ، والمرابطين بالقرب من التنعيم شمال مكة حيث من المنتظر أن يمر النبي ﷺ بأصحابه إلى مكة ، وليتلقى منهم تعليمات جديدة بعد سحب زمام المبادرة من أيديهم . مع أن النبي ﷺ لم يكن يقصد بتحاشي القتال مع فرسان خالد التراجع عن دخول مكة لأداء مناسك العمرة، وإنما يقصد التنزه عن سفك الدماء ، وإعطاء قريش فرصة أطول ، لعلها تعود إلى صوابها ، فتخلى بينه وأصحابه وبين البيت ليطوفوا ويسعوا سالمين ويعودوا سالمين كما هي خطتهم .

أرأيت كيف حرص رسول الله ﷺ على ألا يكون هناك قتال ، وسلك الطرق الوعرة في سبيل ذلك ، يتحمل المشاق هو وصحابته رضي الله عنهم . وهذا ديدن المسلمين طوال حياتهم . لذلك تجدهم يكظمون غيظهم ويلثمون جراحهم في سبيل ألا يكون هناك قتال رغم كثرة القتل والجراحات التي تقع فيهم ، وتصيب خيرة أبنائهم .

آية تكثير الماء في غزوة الحديبية :

وفي رواية ابن إسحاق " فقال للناس انزلوا . قالوا يا رسول الله ما بالوادي من ماء ننزل عليه ". قوله: (على ثمد) بفتح المثلثة والميم أي حفيرة فيها ماء مثمود أي قليل ، وقوله : " قليل الماء " تأكيد لدفع توهم أن يراد لغة من يقول أن الثمد الماء الكثير ، وقيل الثمد ما يظهر من الماء في الشتاء ويذهب في الصيف . قوله : (يتبرضه الناس) بالموحدة والتشديد والضاد المعجمة هو الأخذ قليلا قليلا ، والبرض بالفتح والسكون اليسير

من العطاء ، وقال صاحب العين : هو جمع الماء بالكفين ، وذكر أبو الأسود في روايته عن عروة " وسبقت قريش إلى الماء فنزلوا عليه ، ونزل النبي ﷺ الحديبية في حر شديد وليس بها إلا بئر واحدة " فذكر القصة . قوله : (فلم يلبثه) بضم أوله وسكون اللام من الإلباث ، وقال ابن التين : بفتح اللام وكسر الموحدة الثقيلة أي لم يتركوه يلبث أي يقيم . قوله : (وشكي) بضم أوله على البناء للمجهول . قوله : (فانتزع سهما من كنانته) أي أخرج سهما من جعبته . وقوله: (ثم أمرهم) في رواية ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن رجال من أسلم أن ناجية بن جندب الذي ساق البدن هو الذي نزل بالسهم. وأخرجه ابن سعد من طريق سلمة بن الأكوع ، وفي رواية ناجية بن الأعجم ، قال ابن إسحاق " وزعم بعض أهل العلم أنه البراء بن عازب " وروى الواقدي من طريق خالد بن عبادة الغفاري قال : " أنا الذي نزلت بالسهم " ويمكن الجمع بأنهم تعاونوا على ذلك بالحفر وغيره ، وسيأتي في المغازي من حديث البراء بن عازب في قصة الحديبية " أنه ﷺ جلس على البئر ثم دعا بإناء فمضمض ودعا الله ثم صبه فيها ثم قال : دعوها ساعة . ثم أنهم ارتووا بعد ذلك " ويمكن الجمع بأن يكون الأمران معا وقعا . وقد روى الواقدي من طريق أوس بن خولي " أنه ﷺ توضأ في الدلو ثم أفرغه فيها وانتزع السهم فوضعه فيها " وهكذا ذكر أبو الأسود في روايته عن عروة " أنه ﷺ تمضمض في دلو وصبه في البئر ونزع سهما من كنانته فألقاه فيها ودعا ففارت " وهذه القصة غير القصة الآتية في المغازي أيضا من حديث جابر قال : "عطش الناس بالحديبية وبين يدي رسول الله ﷺ ركوة فتوضأ منها فوضع يده فيها ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه " الحديث ، وكأن ذلك كان قبل قصة البئر والله أعلم .

وفيه بركة سلاحه وما ينسب إليه ، وقد وقع نبع الماء من بين أصابعه في عدة مواطن غير هذه ، وسيأتي في أول غزوة الحديبية حديث زيد بن خالد " أنهم أصابهم مطر بالحديبية " الحديث ، وكأن ذلك وقع بعد القصتين المذكورتين والله أعلم . قوله : (يجيش) بفتح أوله وكسر الجيم وآخره معجمة أي يفور ، وقوله : (بالري) بكسر الراء ويجوز فتحها . وقوله : (صدروا عنه) أي رجعوا رواء بعد وردهم . زاد ابن سعد " حتى اغترفوا بآنيتهم جلوسا على شفير البئر " وكذا في رواية أبي الأسود عن عروة .

بداية المفاوضات وإرسال قريش للوفود :

المفاوض الأول ، مبعوث قريش :

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أتاه بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة ، فكلموه ، وسألوه ما الذي جاء به ؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربا ، وإنما جاء زائرا للبيت ، ومعظما لحرمته . ثم قال لهم نحوا مما قال لبشر بن سفيان ؛ فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد. إن محمدا لم يأت لقتال ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت. فاتهموهم وجبهوهم [٢٨]، وقالوا : وإن كان جاء ولا يريد قتالاً . فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، ولا تحدث بذلك عنا العرب .

وكانت خزاعة عيبة نصح [٢٩]رسول الله ﷺ مسلمها ومشركها ، لا يخفون عنه شيئا كان بمكة.

قال ابن حجر رحمه الله : قوله : (فبينما هم) في رواية الكشميهني " فبيناهم " (كذلك إذ جاء بديل) بالموحدة والتصغير أي ابن ورقاء بالقاف والمد صحابي مشهور . قوله : (في نفر من قومه) سمي الواقدي منهم عمرو بن سالم وخراش بن أمية ، وفي رواية أبي الأسود عن عروة " منهم خارجة بن كرز ويزيد بن أمية " . قوله : (وكانوا عيبة نصح) العيبة بفتح المهملة وسكون التحتانية بعدها موحدة ما توضع فيه الثياب لحفظها ، أي أنهم موضع النصح له والأمانة على سره ، ونصح بضم النون وحكى ابن التين فتحها كأنه شبه الصدر الذي هو مستودع السر بالعيبة التي هي مستودع الثياب . وقوله : (من أهل تهامة) لبيان الجنس ، لأن خزاعة كانوا من جملة أهل تهامة وتهامة بكسر المثناة هي مكة وما حولها ، وأصلها من التهم وهو شدة الحر وركود الريح وزاد ابن إسحاق في روايته " وكانت خزاعة عيبة رسول الله ﷺ مسلمها ومشركها لا يخفون عليه شيئا كان بمكة " ووقع عند الواقدي " أن بديلا قال للنبي ﷺ : لقد غزوت ولا سلاح معك ، فقال : لم نجئ لقتال . فتكلم أبو بكر ، فقال له بديل : أنا لا أُتَّهم ولا قومي ا هـ " وكان الأصل في موالاة خزاعة للنبي ﷺ أن بني هاشم في الجاهلية كانوا تحالفوا مع خزاعة فاستمروا على ذلك في الإسلام .

وفيه جواز استنصاح بعض المعاهدين وأهل الذمة إذا دلت القرائن على نصحهم وشهدت التجربة بإيثارهم أهل الإسلام على غيرهم ولو كانوا من أهل دينهم .

ويستفاد منه جواز استنصاح بعض ملوك العدو استظهارا على غيرهم ، ولا يعد ذلك

---

[٢٨] – جَبَهَ الرجل يجبهه جبهاً : رده عن حاجته ، واستقبله بما يكره . أي عنفوهم . انظر لسان العرب مادة جَبَهَ ٤٨٣/٣ .

[٢٩] – عيبة نصح أي وعاء نصح : وعيبة الرجل : موضع سره . انظر اللسان مادة عيب ٦٣٣/١-٦٣٤ . قلت :والمقصود أنهم ناصحون مخلصون . وقد دخلوا في عهد رسول الله ﷺ وحلفه في هذا الصلح كما سيمر معنا بإذن الله .

من موالاة الكفار ولا موادة أعداء الله بل من قبيل استخدامهم وتقليل شوكة جمعهم وإنكاء بعضهم ببعض ، ولا يلزم من ذلك جواز الاستعانة بالمشركين على الإطلاق .

قوله : (فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي) إنما اقتصر على ذكر هذين لكون قريش الذين كانوا بمكة أجمع ترجع أنسابهم إليهما ، وبقي من قريش بنو سامة بن لؤي وبنو عوف بن لؤي ولم يكن بمكة منهم أحد ، وكذلك قريش الظواهر الذين منهم بنو تيم بن غالب ومحارب بن فهر . قال هشام بن الكلبي: بنو عامر بن لؤي وكعب بن لؤي هما الصريحان لا شك فيهما ، بخلاف سامة وعوف أي ففيهما الخلف . قال وهم قريش البطاح ، أي بخلاف قريش الظواهر . وقد وقع في رواية أبي المليح " وجمعوا لك الأحابيش " بحاء مهملة وموحدة ثم شين معجمة وهو مأخوذ من التحبش وهو التجمع . قوله : (نزلوا أعداد مياه الحديبية) الأعداد بالفتح جمع عد بالكسر والتشديد وهو الماء الذي لا انقطاع له ، وغفل الداودي فقال هو موضع بمكة ، وقول بديل هذا يشعر بأنه كان بالحديبية مياه كثيرة وأن قريشا سبقوا إلى النزول عليها فلهذا عطش المسلمون حيث نزلوا على الثمد المذكور .

قوله : (ومعهم العوذ المطافيل) العوذ بضم المهملة وسكون الواو بعدها معجمة جمع عائذ وهي الناقة ذات اللبن ، والمطافيل الأمهات اللاتي معها أطفالها ، يريد أنهم خرجوا معهم بذوات الألبان من الإبل ليتزودوا بألبانها ولا يرجعوا حتى يمنعوه ، أو كنى بذلك عن النساء معهن الأطفال ، والمراد أنهم خرجوا منهم بنسائهم وأولادهم لإرادة طول المقام وليكون أدعى إلى عدم الفرار ، ويحتمل إرادة المعنى الأعم ، قال ابن فارس : كل أنثى إذا وضعت فهي إلى سبعة أيام عائذ والجمع عوذ كأنها سميت بذلك لأنها تعوذ ولدها وتلزم الشغل به ، وقال السهيلي : سميت بذلك وإن كان الولد هو الذي يعوذ بها لأنها تعطف عليه بالشفقة والحنو ، كما قالوا تجارة رابحة وإن كانت مربوحا فيها . ووقع عند ابن سعد " منهم العوذ المطافيل والنساء والصبيان " . قوله : (نهكتهم) بفتح أوله وكسر الهاء ، أي أبلغت فيهم حتى أضعفتهم ، إما أضعفت قوتهم وإما أضعفت أموالهم . قوله : (ماددتهم) أي جعلت بيني وبينهم مدة يترك الحرب بيننا وبينهم فيها . قوله : (ويخلوا بيني وبين الناس) أي من كفار العرب وغيرهم .

قوله : (فإن أظهر فإن شاءوا) هو شرط بعد الشرط والتقدير فإن ظهر غيرهم علي

كفاهم المئونـة ، وإن أظهـر أنـا علـى غيرهم فـإن شـاءوا أطـاعوني وإلا فـلا تنقضـي مـدة الصلح إلا وقد جَمَّعوا ، أي استراحوا ، وهو بفتح الجيم وتشديد الميم المضمومة أي قووا . ووقـع فـي روايـة ابن إسـحاق " وإن لـم يفعلـوا قـاتلوا وبهـم قـوة " وإنمـا ردد الأمـر مـع أنـه جـازم بـأن الله تعـالى سينصـره ويظـهره لوعد الله تعـالى لـه بذلك ، علـى طريـق التنـزل مـع الخصـم وفـرض الأمـر علـى مـا زعـم الخصـم ، ولهـذه النكتـة حـذف القسـم الأول وهـو التصـريح بظهور غيره عليه ، لكن وقـع التصـريح بـه فـي روايـة ابـن إسـحاق ولفظـه " فإن أصابوني كان الذي أرادوا " ولابن عائذ من وجه آخر عن الزهري " فإن ظهر النـاس علـي فذلك الذي يبتغون " فالظاهر أن الحذف وقع من بعض الرواة تأدبا .

قولـه : (حتى تنفرد سالفتي) السالفة بالمهملـة وكسر الـلام بعدها فاء صفحة العنق ، وكنى بذلك عن القتل لأن القتيل تنفرد مقدمة عنقه . وقال الداودي : المراد الموت أي حتى أموت وأبقى منفردا في قبري . ويحتمل أن يكون أراد أنه يقاتل حتى ينفرد وحده في مقاتلتهم . وقال ابن المنير : لعلـه ﷺ نبـه بـالأدنى علـى الأعلـى ، أي إن لـي مـن القوة بالله والحول بـه مـا يقتضـي أن أقاتـل عن دينـه لو انفردت ، فكيف لا أقاتل عن دينـه مـع وجود المسلمين وكثرتهم ونفاذ بصـائرهم فـي نصـر ديـن الله تعـالى . قولـه : (ولينفـذن) بضـم أولـه وكسـر الفـاء أي ليمضـين (الله أمره) فـي نصـر دينـه . وحسـن الإتيـان بهـذا الجزم– بعد ذلك التردد– للتنبيه على أنه لم يورده إلا على سبيل الفرض .

قولـه : (فقال بديل سأبلغهم ما تقول) أي فأذن لـه . قولـه : (فقال سفهاؤهم) سمى الواقدي منهم عكرمة بن أبي جهل والحكم بن أبي العاص . قولـه : (فحدثهم بما قال) زاد ابن إسحاق في روايته " فقال لهم بديل : إنكم تعجلون على محمد ، إنه لم يأت لقتال ، إنما جاء معتمرا . فاتهموه – أي اتهموا بديلا ، لأنهم كانوا يعرفون ميله إلى النبي ﷺ – فقالوا إن كان كما تقول فلا يدخلها علينا عنوة " . قوله : (فقام عروة) فـي روايـة أبي الأسود عن عروة عند الحاكم في " الإكليل " والبيهقي في " الدلائل " وذكر ذلك ابن إسحاق أيضا من وجه آخر.

النبي ﷺ يرسل إلى قريش سفيراً له يخبرهم بمراده :

قالوا لمـا نـزل ﷺ بالحديبيـة أحب أن يبعث رجـلا من أصـحابه إلـى قريش يعلمهم بأنـه إنمـا قدم معتمرا ، فدعا عمر فاعتذر بأنـه لا عشيرة لـه بمكـة ، فدعا عثمـان فأرسله بذلك . وأمره أن يعلم من بمكة من المؤمنين بـأن الفرج قريب ، فأعلمهم عثمـان بذلك ،

فحمله أبان بن سعيد بن العاص على فرسه – فذكر القصة – فقال المسلمون : هنيئا لعثمان ، خلص إلى البيت فطاف به دوننا ، فقال النبي ﷺ : إن ظني به أن لا يطوف حتى نطوف معا . فكان كذلك . قال : ثم جاء عروة بن مسعود" فذكر القصة . وفي رواية ابن إسحاق أن مجيء عروة كان قبل ذلك ، وذكرها موسى بن عقبة في المغازي عن الزهري، وكذا أبو الأسود عن عروة قبل قصة مجيء، سهيل بن عمرو ، فالله أعلم .

المفاوض الثاني (مبعوث قريش):

ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي[٣٠] فقال : يا معشر قريش ، إني قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم ، من التعنيف وسوء اللفظ . وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد (وكان نسبه لأمه في بني عبد شمس) وقد سمعت بالذي نابكم ، فجمعت من أطاعني من قومي ، ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسي . قالوا : صدقت، ما أنت عندنا بمتَّهم. فخرج حتى جاء رسول الله ﷺ فجلس بين يديه . ثم قال : يا محمد . أجمعت أوشاب الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم [٣١]؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً . وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا . قال : وأبو بكر خلف رسول الله ﷺ قاعد قال : امصص بظر اللات ، أنحن نكشف عنه ؟! قال : من هذا يا محمد ؟ قال :" هذا ابن أبي قحافة " . قال: أما والله لولا يد كانت لك عندي[٣٢] لكافأتك بها. ولكن هذه بها . قال : ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه . قال : والمغيرة بن شعبة[٣٣] واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد . قال فجعل يقرع يده إذا تناول لحية

---

[٣٠] – هو عروة بن مسعود بن معتب بن مالك الثقفي ، سيد عظيم من سادات ثقيف ،كانت له اليد الطولى في تقرير صلح الحديبية ، أسلم سنة تسع من الهجرة وحسن إسلامه ، وفيه قال النبي ﷺ كما في صحيح مسلم: " عرض علي الأنبياء ورأيت عيسى ، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود .." بعد أن أسلم استأذن النبي ﷺ في أن يذهب إلى قومه ثقيف ليدعوهم إلى الإسلام ، فقال ﷺ :إني أخاف أن يقتلوك ، قال : لو وجدوني نائما ما أيقظوني ، فأذن له ، فدعاهم إلى الإسلام ونصح لهم فعصوه ، ثم قتلوه ، قتله رجل منهم بسهم ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال : مثل عروة مثل صاحب ياسين ، دعا قومه إلى الله فقتلوه ، وقيل له: ما ترى في دمك ؟ قال : كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إلي . انظر الإصابة لابن حجر

[٣١] – بيضة الرجل : أهله وقبيلته . وبيضة القوم : أصلهم . وبيضة كل شيء حوزته ، وقيل البيضة الخوذة ، والبيضة أصل القوم ومجتمعهم ، يقال : أتاهم العدو في بيضتهم ، وهنا أي جئت بهم إلى بيضتك أي أصلك وعشيرتك تفضها ، وتفضها أي تكسرها . وهو كناية عن تحطيمها . وقيل : أراد بالبيضة الخوذة ، فكأنه شبه مكان اجتماعهم والتئامهم ببيضة الحديد .انظر لسان العرب مادة بيض ، ١٢٧/٧ .

[٣٢] –كانت اليد التي لأبي بكر الصديق ؓ على عروة بن مسعود ؓ أنه كان سيداً في قومه يحمل الديات لفض المنازعات القبلية ، فحمل مرة دية فاستعان بالأشراف فأعانه بالفريضتين والثلاث وأعانه أبو بكر بعشر فرائض ، فكانت هذه اليد التي لأبي بكر عند عروة .

[٣٣] – هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي يكنى بأبي عيسى وأبي محمد ،كان من الشباب الفاتك وقطاع الطرق في الجاهلية ، من المهاجرين أسلم قبل الحديبية ، وكانت أولى مشاهده وبايع بيعة الرضوان ، وكان من دهاة العرب ، ولاه عمر البصرة ، وكان ضمن الوفد الذي أرسله القائد سعد إلى قائد الفرس الأعلى للتفاوض ودعوتهم إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب ، وهو الذي خرق برمحه بساط رستم ، وجلس معه على سريره تحدياً ، وكان من مستشاري القائد النعمان بن مقرن فاتح نهاوند . عزل الخليفة عمر المغيرة بعد تلك التهمة التي وجهت إليه والتي جلد بسببها الخليفة

رسول الله ﷺ ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك ! قال : فيقول عروة : ويحك ! ما أفظك وأغلظك ! قال: فتبسم رسول الله ﷺ فقال له عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : " هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة " قال : أي غدر[٣٤] . وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس؟

قال ابن هشام : أراد عروة بقوله هذا : أن المغيرة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلا من بني مالك من ثقيف ، فتهايج الحيان من ثقيف : بنو مالك رهط المقتولين . والأحلاف رهط المغيرة . فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية ، وأصلح ذلك الأمر .

وهذا دليل على يقظة المسلمين من أن يُغدر بقائدهم . فهم على يقظة تامة حتى من حركة يد عدوهم أو مفاوضهم .

قال ابن اسحاق : قال الزهري : فكلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم أصحابه وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً . فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه : لا يتوضأ وضوءه ، ولا يبصق بصاقًا إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال : يا معشر قريش ، إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ؛ وإني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه ؛ ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا ، فروا رأيكم .

لقد حاول عروة بن مسعود تخويف النبي ﷺ ليعود من حيث أتى ، وحاول التأثير عليه ، بأن من مصلحته ومصلحة أصحابه أن يزيلوا من أذهانهم فكرة الأمل في الطواف بالبيت ما دام لقريش سلطان في مكة . ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل ، وهذا يدل على أن الوسيط الذي يرسله العدو يحمل دائماً وجهة نظر العدو، ويحاول بكل ما أوتي من قوة أن يقنع الطرف الآخر بأن في تطبيقها خيراً له ومصلحة له أيضاً. ولكن إذا وجد الوسيط قوة في طرح الطرف الآخر ، ووضوحاً في الأدلة وإصراراً على الحق ، لا بدَّ من أن يتأثر به ويحمله إلى من أرسله وسيطاً . لذا أصر النبي ﷺ على أن من حقه ومن حق أصحابه أن يدخلوا مكة ويطوفوا متى شاءوا ، إلا أنهم لن يتعجلوا الأمور لنيل هذا الحق عن طريق اقتحام مكة بحدِّ السلاح .. وذلك رغبة منهم في حقن الدماء ، وأملاً

ثلاثة من الصحابة بسبب عدم ثبوت هذه التهمة شرعاً . كذلك ولاه الفاروق إمارة البحرين ، والتزم الحياد في الفتنة بين علي ومعاوية رضى الله عنهم أجمعين ، وشهد المغيرة معركة اليرموك وفقد فيها أحدى عينيه ، وولاه الخليفة معاوية الكوفة فاستمر عليها واليا حتى مات سنة خمسين . انظر الإصابة

[٣٤] – أي غدر : يعني يا غادر . قال ابن منظور :" وغُدَر وأكثر ما يستعمل هذا في النداء في الشتم . يقال : يا غدر . قال ابن الأثير : غدر معدول عن غادر للمبالغة ، ويقال للذكر غدر والأنثى غدار كقِطام ، وهما مختصان بالنداء في الغالب . لسان العرب مادة غدر ٨/٥

منهم في أن يصحو عقلاء قريش من سكرة طغيانهم فينتهجون أي نهج به يحولون دون سفك الدماء ، ويفسحون الطريق للمسلمين ليباشروا حقهم الطبيعي في زيارة بيت الله الحرام شأنهم في ذلك شأن كل العرب.[٣٥]

قلت : هل رأيتم أن رسول الله ﷺ غير من خطابه السياسي؟ كلا . ولكن كان خطابه إلى جميع من جاءه واحداً . "إنه لم يأت لحرب" . وإنما يريد تعظيم البيت واعتماره ، وهذا يدل على إيمانه المطلق بصدق قضيته وما جاء من أجله ، فيطرحها بقوة دون وجل ، ولم يتنازل شيئا عما جاء له. وهاهو يرسل موفداً ورسولاً من لدنه إلى قريش يؤكد لهم ما جاء به ﷺ ، ولم يكتف بما أجاب موفدي قريش . وهذا يعطينا الحرية في التحرك ، وإبداء وجهة نظرنا عن طريق خطاب سياسي ، أو إرسال مندوب أو ممثل عنا ليشرح قضيتنا بجلاء وبقوة ، دون خوف أو وجل ، ودون تهاون في حق من حقوقنا التي حفظها لنا الشارع الحكيم كما حفظتها لنا جميع القوانين الدولية والعرفية ، ألم يقل الله سبحانه وتعالى على لسان أجداد من يريدون حرماننا من هذا الحق الذي احتجوا به لنبيهم عليه السلام :" وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا؟!!!"[٣٦]..

لقد عاد الوسيط حاملاً إليهم نهاية مفاوضاته الفاشلة ، وحاملاً لهم التحذير ومسدياً له النصح بأن يحنوا رؤوسهم للعاصفة لتمر بسلام ، بأن يخففوا من غلوائهم . كما نصحهم بأن لا يورطوا أنفسهم في صدام مسلح مع النبي ﷺ وأصحابه ، لأن الهزيمة – حسب ملاحظاته وتقديراته – ستكون من نصيب حلفائه القرشيين إن هم تسرعوا ، وتعجلوا العدوان . وقد بانت له الحقيقة التي لم يخفها عن حلفائه .. بانت له على ضوء ما لمسه ورآه من تماسك المسلمين داخل معسكر محمد ﷺ بشكل لم يسبق له أن سمع أو رأى مثله ، على ضوء ما رآه من حب عجيب بين المسلمين لنبيهم ، وتفانٍ أعجب في حمايته والدفاع عنه .

ثم نصحهم بأن يقبلوا ما عرض عليهم النبي ﷺ من مهادنة تنهي حالة الحرب بينهم ، وكرر مرة أخرى انتقاد قريش لإصرارها على منع المسلمين من دخول الحرم فقال :" وقد عرض عليكم خطة فمادّوه يا قوم ، اقبلوا ما عرض فإني لكم ناصح ، مع أني

---

[٣٥] – انظر صلح الحديبية لمحمد أحمد باشميل ص ١٩٣ بتصرف .

[٣٦] – سورة البقرة ، رقم الآية ٢٤٦ .

أخاف ألا تنصروا عليه ، ثم قال مستنكراً فعل قريش في تعجب : رجل أتى هذا البيت معظماً له معه الهدي ينحره وينصرف [٣٧]. ولدى سماع سادات قريش حديث حليفهاعروة أسقط في أيديهم ورأوا أن لا مناص لهم من أن ينحنوا للعاصفة فقرروا التخلي عن فكرة منع المسلمين من دخول الحرم أبداً ، وقرروا أن يسمحوا للمسلمين بدخول مكة ، ولكن بصورة تحفظ لهم شيئاً من ماء وجوههم ، وهي أن يعود النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة هذا العام ثم يأتوا ليدخلوا مكة ويطوفوا ويسعوا في العام القادم . وقد أفصحوا لحليفهم عروة عن مشروعهم هذا ، وأنهم سيعرضون الصلح على أساس هذا المشروع رجاء أن يقبله النبي ﷺ كحل وسط للأزمة. فقالوا لعروة راجين منه كتمان ما صارحهم به :" لا تتكلم بهذا يا أبا يعفور (وهذه كنيته) ، ولكن نرده عامنا هذا ويرجع إلى قابل . فقال عروة – وقد بدا عليه الرضى حتى بهذا المشروع – : ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة .. ثم انصرف ومن معه من ثقيف إلى الطائف .[٣٨]

هذا وكان رجوع عروة بن مسعود الثقفي رضي الله عنه بقومه إلى الطائف (احتجاجاً على تشدد قريش وتعنتها) أول انشقاق عملي في المعسكر القرشي ، إذ أضعف انسحاب عروة بن مسعود بقومه من معسكر قريش مركز هؤلاء القرشيين إلى حد كبير . ومع ذلك ومع رغبتهم في الصلح وخوفهم من الصدام المسلح ظلوا على عنادهم يتظاهرون بأنهم مصممون على منع المسلمين من دخول مكة مهما كانت النتائج .. وذلك مناورة وأملاً منهم في أن يضيق المسلمون لطول المقام في الحديبية محرمين شعثاً غبراً فيضطرون للعودة إلى المدينة دون أن يطوفوا بالبيت ،ودون أن يحصلوا على ضمان يضمن لهم دخول مكة معتمرين .

كما زاد قريشاً طمعاً في هذا وشجعها على الاستمرار في المناورة والتهديد أن النبي ﷺ أعلن عدم رغبته في الحرب ، وأنه مستعد لقبول أية خطة تعرضها قريش يكون فيها حقن الدم وصيانة حرمة الحرم . فحاولت قريش أن تستفيد إلى آخر لحظة من محاولة النبي ﷺ تجنب القتال وإعلانه قبول أية خطة سلام ، ظانين أن هذا الأمر سيجعل المسلمين يقبلون الدنية في دينهم ، وأنهم سيقبلون أية خطة للسلام بأي ثمن . مع أن كلمات النبي ﷺ واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار قال ﷺ : "والذي نفسي

---

[٣٧] – انظر معازي المواقدي ٥٩٨/٢ وما بعدها .

[٣٨] – انظر السيرة الحلبية ١٣٩/٢ .

بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها" ، والخطة التي يعظمون فيها حرمات الله وهي بيته المحرم وصلة الرحم وعدم سفك الدم، فتعظيم بيت الله المحرم يعني عدم صد الناس عنه ، وهكذا ترفع قريش يدها عن بيت الله الحرام ، فلا تصد عنه من تشاء ، ويكون للمسلمين حق الوصول إليه أنَّى شاءوا دون إذن من أعداء الله.

والمتأمل في كلام النبي ﷺ لبسر بن سفيان ولمبعوثي قريش يجد أنه قول يحمل كل معاني الحصافة والمرونة والاتزان مع إعلان الثقة والقدرة العسكرية . مع أنه يحمل الرغبة في حقن الدماء إلا أنه يتضمن التصريح بعدم الخوف من الحرب إذا ما فرضت . ولتفهم قريش بأن عليها أن تزيل من مخيلتها فكرة الأمل في أية تنازلات يعطيها النبي ﷺ على حساب الإخلال بجوهر دعوته مهما كانت الظروف والأحوال .

وعلينا أن نستفيد من هذا البيان الواضح لكل مناوئ للإسلام والمسلمين ، أن عليهم أن يزيلوا من مخيلاتهم فكرة الأمل في أن يتنازل المسلمون عن عقيدتهم (والقدس وفلسطين من عقيدتنا) فإن ضَعُفَ المسلمون اليوم ، وبغى عليهم أعداؤهم بطراً بقوتهم وآلتهم العسكرية ، فلن يبقى الضعيف ضعيفاً ولن يبقى القوي قوياً . **(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)**[٣٩]. ولن يسمح المسلمون أن تبقى مقدساتهم رهينة أو محتلة في يد أعدائهم إلى أبد الآبدين .

قوله : (ألستم بالولد وألست بالوالد ؟ قالوا : بلى) كذا لأبي ذر ، ولغيره بالعكس " ألستم بالوالد وألست بالولد " وهو الصواب وهو الذي في رواية أحمد وابن إسحاق وغيرهما ، وزاد ابن إسحاق عن الزهري أن أم عروة هي سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف ، فأراد بقوله : " ألستم بالوالد " أنكم حي قد ولدوني في الجملة لكون أمي منكم . وجرى بعض الشراح على ما وقع في رواية أبي ذر فقال : أراد بقوله : "ألستم بالولد " أي أنتم عندي في الشفقة والنصح بمنزلة الولد ، قال : ولعله كان يخاطب بذلك قوما هو أسن منهم . قوله : (استنفرت أهل عكاظ) بضم المهملة وتخفيف الكاف وآخره معجمة أي دعوتهم إلى نصركم . قوله : (فلما بَلَّحوا) بالموحدة وتشديد اللام المفتوحتين ثم مهملة مضمومة أي امتنعوا ، والتبلح التمنع من الإجابة ، وبلح الغريم إذا امتنع من أداء ما عليه زاد ابن إسحاق " فقالوا صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم " . قوله : (قد عرض عليكم

---

[٣٩] – سورة آل عمران بعض الآية رقم ١٤٠ .

) في رواية الكشميهني " لكم ".(خطة رشد) بضم الخاء المعجمة وتشديد المهملة ، والرشد بضم الراء وسكون المعجمة وبفتحهما ، أي خصلة خير وصلاح وإنصاف ، وبين ابن إسحاق في روايته أن سبب تقديم عروة لهذا الكلام عند قريش ما رآه من ردهم العنيف على من يجيء من عند المسلمين . قوله : (ودعوني آته) بالمد ، وهو مجزوم على جواب الأمر وأصله أئته أي أجيء إليه (قالوا ائته) بألف وصل بعدها همزة ساكنة ثم مثناة مكسورة ثم هاء ساكنة ويجوز كسرها . قوله : (نحوا من قوله لبديل) زاد ابن إسحاق " وأخبره أنه لم يأت يريد حربا " .

قوله : (فقال عروة عند ذلك) أي عند قوله : لأقاتلنهم . قوله : (اجتاح) بجيم ثم مهملة أي أهلك أصله بالكلية ، وحذف الجزاء من قوله : " وإن تكن الأخرى " تأدبا مع النبي ﷺ ، والمعني وإن تكن الغلبة لقريش لا آمنهم عليك مثلا . وقوله : (فإني والله لا أرى وجوها إلخ) كالتعليل لهذا القدر المحذوف ، والحاصل أن عروة ردد الأمر بين شيئين غير مستحسنين عادة وهو هلاك قومه إن غلب ، وذهاب أصحابه إن غلب ، لكن كل من الأمرين مستحسن شرعا كما قال تعالى : (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين). قوله : (أشوابا) بتقديم المعجمة على الواو كذا للأكثر وعليها اقتصر صاحب المشارق ، ووقع لأبي ذر عن الكشميهني " أوشابا " بتقديم الواو ، والأشواب الأخلاط من أنواع شتى ، والأوباش الأخلاط من السفلة ، فالأوباش أخص من الأشواب . قوله : (خليقا) بالخاء المعجمة والقاف أي حقيقا وزنا ومعنى ، ويقال خليق للواحد والجمع ولذلك وقع صفة لأشواب . قوله : (ويدعوك) بفتح الدال أي يتركوك ، في رواية أبي المليح عن الزهري عند من سميته " وكأني بهم لو قد لقيت قريشا قد أسلموك فتؤخذ أسيرا فأي شيء أشد عليك من هذا " وفيه أن العادة جرت أن الجيوش المجمعة لا يؤمن عليها الفرار بخلاف من كان من قبيلة واحدة فإنهم يأنفون الفرار في العادة . وما درى عروة أن مودة الإسلام أعظم من مودة القرابة ، وقد ظهر له ذلك من مبالغة المسلمين في تعظيم النبي ﷺ كما سيأتي .

قوله : (فقال له أبو بكر الصديق) زاد ابن إسحاق " وأبو بكر الصديق خلف رسول الله ﷺ قاعد فقال" قوله : (امصص ببظر اللات) زاد ابن عائذ من وجه آخر عن الزهري " وهي – أي اللات – طاغيته التي يعبد " أي طاغية عروة . وقوله امصص بألف وصل ومهملتين الأولى مفتوحة بصيغة الأمر ، وحكى ابن التين عن رواية القابسي

ضم الصاد الأولى وخطأها ، والبظر بفتح الموحدة وسكون المعجمة قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة ، واللات اسم أحد الأصنام التي كانت قريش وثقيف يعبدونها ، وكانت عادة العرب الشتم بذلك لكن بلفظ الأم فأراد أبو بكر المبالغة في سب عروة بإقامة من كان يعبد مقام أمه ، وحمله على ذلك ما أغضبه به من نسبة المسلمين إلى الفرار .
وفيه جواز النطق بما يستبشع من الألفاظ لإرادة زجر من بدا منه ما يستحق به ذلك .
وقال ابن المنير : في قول أبي بكر تخسيس للعدو وتكذيبهم وتعريض بإلزامهم من قولهم إن اللات بنت الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، بأنها لو كانت بنتا لكان لها ما يكون للإناث .

قوله : (أنحن نفر) استفهام إنكار . قوله : (من ذا ؟ قالوا أبو بكر) في رواية ابن إسحاق " فقال : من هذا يا محمد ؟ قال :هذا ابن أبي قحافة ". قوله : (أما) هو حرف استفتاح ، وقوله : "والذي نفسي بيده " يدل على أن القسم بذلك كان عادة للعرب . قوله : (لولا يد) أي نعمة ، وقوله : (لم أجزك بها) أي لم أكافئك بها ، زاد ابن إسحاق " ولكن هذه بها " أي جازاه بعدم إجابته عن شتمه بيده التي كان أحسن إليه بها ، وبين عبد العزيز الإمامي عن الزهري في هذا الحديث أن اليد المذكورة أن عروة كان تحمل بدية فأعانه أبو بكر فيها بعون حسن ، وفي رواية الواقدي عشر قلائص .

قوله : (قائم على رأس النبي ﷺ بالسيف) فيه جواز القيام على رأس الأمير بالسيف بقصد الحراسة ونحوها من ترهيب العدو ، ولا يعارضه النهي عن القيام على رأس الجالس لأن محله ما إذا كان على وجه العظمة والكبر . قوله : (فكلما تكلم) في رواية السرخسي والكشميهني " فكلما كلمه أخذ بلحيته " وفي رواية ابن إسحاق " فجعل يتناول لحية النبي ﷺ وهو يكلمه " . قوله : (والمغيرة بن شعبة قائم) في مغازي عروة بن الزبير رواية أبي الأسود عنه " أن المغيرة لما رأى عروة بن مسعود مقبلا لبس لأمته وجعل على رأسه المغفر ليستخفي من عروة عمه " . قوله : (بنعل السيف) هو ما يكون أسفل القراب من فضة أو غيرها . قوله :(أخر) فعل أمر من التأخير ، زاد ابن إسحاق في روايته " قبل أن لا تصل إليك " وزاد عروة بن الزبير " فإنه لا ينبغي لمشرك أن يمسه " وفي رواية ابن إسحاق " فيقول عروة : ويحك ما أفظك وأغلظك " وكانت عادة العرب أن يتناول الرجل لحية من يكلمه ولا سيما عند الملاطفة وفي الغالب إنما يصنع ذلك النظير بالنظير ، لكن كان النبي ﷺ يغضي لعروة عن ذلك استمالة له وتأليفا ،

والمغيرة يمنعه إجلالا للنبي ﷺ وتعظيما . قوله : (فقال : من هذا ؟ قال المغيرة) وفي رواية أبي الأسود عن عروة " فلما أكثر المغيرة مما يقرع يده غضب وقال : ليت شعري من هذا الذي قد آذاني من بين أصحابك ؟ والله لا أحسب فيكم الأم منه ولا أشر منزلة " وفي رواية ابن إسحاق " فتبسم رسول الله ﷺ ، فقال له عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة " وكذا أخرجه ابن أبي شيبة من حديث المغيرة بن شعبة نفسه بإسناد صحيح ، وأخرجه ابن حبان. قوله : (أي غدر) بالمعجمة بوزن عمر معدول عن غادر مبالغة في وصفه بالغدر . قوله : (ألست أسعى في غدرتك) أي ألست أسعى في دفع شر غدرتك ؟ وفي مغازي عروة " والله ما غسلت يدي من غدرتك ، لقد أورثتنا العداوة في ثقيف " وفي رواية ابن إسحاق " وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس " قال ابن هشام في السيرة : أشار عروة بهذا إلى ما وقع للمغيرة قبل إسلامه ، وذلك أنه خرج مع ثلاثة عشر نفرا من ثقيف من بني مالك فغدر بهم وقتلهم وأخذ أموالهم ، فتهايج الفريقان بنو مالك والأحلاف رهط المغيرة ، فسعى عروة بن مسعود عم المغيرة حتى أخذوا منه دية ثلاثة عشر نفسا واصطلحوا . وفي القصة طول . وقد ساق ابن الكلبي والواقدي القصة ، وحاصلها أنهم كانوا خرجوا زائرين المقوقس بمصر فأحسن إليهم وأعطاهم وقصر بالمغيرة فحصلت له الغيرة منهم ، فلما كانوا بالطريق شربوا الخمر ، فلما سكروا وناموا وثب المغيرة فقتلهم ولحق بالمدينة فأسلم . قوله : (أما الإسلام فأقبل) بلفظ المتكلم أي أقبله . قوله : (وأما المال فلست منه في شيء) أي لا أتعرض له لكونه أخذه غدرا .

ويستفاد منه أنه لا يحل أخذ أموال الكفار في حال الأمن غدرا لأن الرفقة يصطحبون على الأمانة والأمانة تؤدى إلى أهلها مسلما كان أو كافرا ، وأن أموال الكفار إنما تحل بالمحاربة والمغالبة ، ولعل النبي ﷺ ترك المال في يده لإمكان أن يسلم قومه فيرد إليهم أموالهم .

ويستفاد من القصة أن الحربي إذا أتلف مال الحربي لم يكن عليه ضمان ، وهذا أحد الوجهين للشافعية . قوله : (فجعل يرمق) بضم الميم أي يلحظ . قوله : (فدلك بها وجهه وجلده) زاد ابن إسحاق " ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه " وقوله : " وما يحدون " بضم أوله وكسر المهملة أي يديمون .

وفيه طهارة النخامة والشعر المنفصل والتبرك بفضلات الصالحين الطاهرة ، ولعل

الصحابة فعلوا ذلك بحضرة عروة وبالغوا في ذلك إشارة منهم إلى الرد على ما خشيه من فرارهم ، وكأنهم قالوا بلسان الحال : من يحب إمامه هذه المحبة ويعظمه هذا التعظيم كيف يظن به أنه يفر عنه ويسلمه لعدوه ؟ بل هم أشد اغتباطا به وبدينه وبنصره من القبائل التي يراعي بعضها بعضا بمجرد الرحم .
فيستفاد منه جواز التوصل إلى المقصود بكل طريق سائغ .

قوله : (ووفدت على قيصر) هو من الخاص بعد العام ، وذكر الثلاثة لكونهم كانوا أعظم ملوك ذلك الزمان . وفي مرسل علي بن زيد عند ابن أبي شيبة " فقال عروة : أي قوم ؛ إني قد رأيت الملوك ، ما رأيت مثل محمد ، وما هو بملك ، ولكن رأيت الهدي معكوفا ، وما أراكم إلا ستصيبكم قارعة ، فانصرف هو ومن اتبعه إلى الطائف ".
وفي قصة عروة بن مسعود من الفوائد ما يدل على جودة عقله ويقظته .
وما كان عليه الصحابة من المبالغة في تعظيم النبي ﷺ وتوقيره ومراعاة أموره وردع من جفا عليه بقول أو فعل والتبرك بآثاره .

المفاوض الثالث (مبعوث قريش) :

ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة أو ابن زبان . وكان يومئذ سيد الأحابيش [٤٠] وهو أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة . فلما رآه رسول الله ﷺ قال: "إن هذا من قوم يتألهون – يعني يتعبدون – فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه ". فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاما لما رأى . فقال له ذلك. فقالوا له : اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك !

قال ابن اسحاق : فحدثني عبدالله بن أبي بكر أن الحليس غضب عند ذلك . وقال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم . أيصد عن بيت الله من جاء معظما له ؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد . قال : فقالوا له : مهْ . كفّ عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

وهذا بالضبط ما يقوم به الأعداء كلما جاءهم من ينصحهم بأن يكفوا عن الظلم

---

٤٠ – الأحابيش : جمع حبشي بضم الحاء المهملة وسكون الباء نسبة إلى جبل بأسفل مكة بنعمان الأراك . يقال سميت به أحابيش قريش ، وبينه وبين مكة ستة أميال . وليس نسبة –كما يظن بعض الجاهلين – إلى الحبشة . انظر معجم البلدان ٢١٤/٢ بتصرف .

والاعتداء ، والانسحاب من الضفة بما فيها القدس والقطاع ، لأنها أرض محتلة ويبين لهم إيجابيات ذلك عليهم وسلبياته إن لم يفعلوه ، يقولون له : كف عنا ، حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به . ويضيعون الوقت لمزيد من بناء المستوطنات والتوسع بها وهدم البيوت وسحب الهويات وحصار الآمنين ، إلى غير ذلك . ألم تر ما فعلوا برئيس فرنسا " مسيو شيراك " ووزير خارجية بريطانيا في زيارتيهما إلى فلسطين المحتلة في العام الماضي؟! مع أن هاتين الدولتين هما اللتان أقامتا إسرائيل وساعدتها في كل حروبها ضد العرب .

فكان سيد الأحابيش حتى وصوله معسكر المسلمين في الحديبية ، يحمل في قرارة نفسه عن المسلمين الفكرة الخاطئة التي رسبتها في الأذهان دعايات المشركين الوثنيين ، من أن محمداًﷺ وأصحابه جاءوا يريدون قتالاً ، وأن قريشاً مستضعفة وهي التي تحمي الحرم وتدافع عن حرمات الله سبحانه وتعالى . ألا ترى أن حكومات إسرائيل سارت على نهج قريش في دعاياتهم المغرضة ضد الفلسطينيين والعرب من أنهم يهددون وجودها ، في حين أنها هي التي تحتل أراضيهم ، وتقصف مدنهم وعواصمهم ومشاريعهم ومدارسهم ، وتعربد في المنطقة بما حصلت عليه من أسلحة نووية وكيميائية ، وأحدث ما قدمته ترسانة الأسلحة الغربية . بالإضافة إلى أنها تحتل أراضي الفلسطينيين وتستعبدهم ، وتدَّعي أنهم يهددون أمنها ! فهل رأى العالم مذبوحاً ومقتولاً يهدد ذابحاً وقاتلاً ؟!

لقد أوقعت تصريحات سيد الأحابيش الشديدة قريشاً في مأزق حرج ، فإخذوا يبحثون عن مخرجٍ ينقذهم من الورطة التي وقعوا فيها أنفسهم ، ورأت أن هذا المخرج لن يكون إلا بعقد صلح يتم بينها وبين النبي ﷺ يحفظ لها ماء وجهها ، بعد أن أقسمت ألا يدخل محمد عليها مكة أبداً . لذا طلبوا من سيد الأحابيش أن يكف عنهم حتى يأخذوا لأنفسهم ما يرضونه وهو الصلح ، فأجابهم الحليس إلى ما طلبوا فلم ينسحب من حلفهم بعد أن رأى أن ثمار إنذاره قد آتت أكلها بتراجع قريش عن موقفها المتصلب ، وسعيها للصلح مع المسلمين .

كما أن موقف المسلمين ازداد قوة ، لا سيما بعد أن وجدوا داخل المعسكر القرشي كالحليس ، وبين جيران الحرم من غير القرشيين كسيد خزاعة بديل بن ورقاء، من يؤيدهم ويرى الحق في جانبهم ، ويلقي باللوم على قريش ويحملها المسئولية إذا ما نشب القتال .

وهذا مما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن الرسول ﷺ استطاع أن يحيِّد الأحابيش ، بل ويستعديهم على قريش التي ما زالت تصد الحاجين والمعتمرين بيت الله الحرام ، وذلك من معرفة الرسول ﷺ بالناس ، وحسن التعامل معهم من خبرته بهم وبما يحملون من أفكار.

والأعداء قد تغرهم قوتهم ، فلا يستمعون لصوت الحق أو العقل ، ظانين أن القوة هي لهم وإلى الأبد ، وما علموا أن القوي يضعف ، والضعيف يقوى ، وأن دوام الحال من المحال.

قوله : (فقال رجل من بني كنانة) في رواية الإمامي " فقام الحليس " بمهملتين مصغر ، وسمى ابن إسحاق والزبير بن بكار أباه علقمة ، وهو من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة وكان من رءوس الأحابيش.وهم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وبنو المصطلق بن خزاعة ، والقارة وهم بنو الهون بن خزيمة . وفي رواية الزبير بن بكار " أبى الله أن تحج لخم وجذام وكندة وحمير ، ويمنع ابن عبد المطلب " . قوله : (فابعثوها له) أي أثيروها دفعة واحدة . وزاد ابن إسحاق " فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي بقلائده قد حبس عن محله رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ " لكن في مغازي عروة عن الحاكم " فصاح الحليس فقال : هلكت قريش ورب الكعبة ، إن القوم إنما أتوا عمارا ، فقال النبي ﷺ أجل يا أخا بني كنانة فأعلمهم بذلك " فيحتمل أن يكون خاطبه على بعد . قوله : (فما أرى أن يصدوا عن البيت) زاد ابن إسحاق " وغضب وقال : يا معشر قريش ما على هذا عاقدناكم ، أيصد عن بيت الله من جاء معظما له ؟ فقالوا : كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى "

وفيه جواز المخادعة في الحرب وإظهار إرادة الشيء والمقصود غيره .

وفيه أن كثيرا من المشركين كانوا يعظمون حرمات الإحرام والحرم ، وينكرون على من يصد عن ذلك تمسكا منهم ببقايا من دين إبراهيم عليه السلام .

المفاوض الرابع (مبعوث قريش) :

ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأحنف أخا بني عامر بن لؤي . فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال : "هذا رجل غادر". فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلمه ، قال له رسول الله ﷺ نحواً مما قال لبديل وأصحابه ؛ فرجع إلى قريش ، فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ .

قولـه : (فقام رجل منهم يقال لـه مكرز) بكسر الميم وسكون الكاف وفتح الراء بعدها زاي ابن حفص ، زاد ابن إسحاق " ابن الأخيف " وهو بالمعجمة ثم تحتانية ثم الفاء ، وهو من بني عامر بن لؤي . ووقع بخط ابن عبدة النسابة بفتح الميم وبخط يوسف بن خليل الحافظ بضمها وكسر الراء ، والأول المعتمد . قوله : (وهو رجل فاجر) في رواية ابن إسحاق " غادر " وهو أرجح ، فإني مازلت متعجبا من وصفه بالفجور مع أنه لم يقع منه في قصة الحديبية فجور ظاهر ، بل فيها ما يشعر بخلاف ذلك كما سيأتي من كلامه في قصة أبي جندل ، إلى أن رأيت في مغازي الواقدي في غزوة بدر أن عتبة بن ربيعة قال لقريش " كيف نخرج من مكة وبنو كنانة خلفنا لا نأمنهم على ذرارينا ؟ قال : وذلك أن حفص بن الأخيف يعني والد مكرز كان له ولد وضيء فقتله رجل من بني بكر بن عبد مناة بن كنانة بدم له كان في قريش ، فتكلمت قريش في ذلك ، ثم اصطلحوا . فعدا مكرز بن حفص بعد ذلك على عامر بن يزيد سيد بني بكر غرة فقتله ، فنفرت من ذلك كنانة ، فجاءت وقعة بدر في أثناء ذلك . وكان مكرز معروفا بالغدر " وذكر الواقدي أيضا أنه أراد أن يبيت المسلمين بالحديبية فخرج في خمسين رجلا فأخذهم محمد بن مسلمة وهو على الحرس وانفلت منهم مكرز، فكأنه ﷺ أشار إلى ذلك .

أول موفد لرسول الله ﷺ إلى قريش :

وهاهو رسول الله ﷺ يرسل موفده ورسوله إلى قريش يؤكد لهم ما جاء به ﷺ ولأجله .

قال ابن إسحاق : وحدثني بعض أهل العلم ، أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعي[٤١] فبعثه إلى قريش بمكة ، وحمله على بعير له يقال له : الثعلب . ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له . فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله ، فمنعته الأحابيش ، فخلوا سبيله حتى جاء رسول الله ﷺ .

وهذا يدل دلالة واضحة على أن الأعداء إذا رأوا فرصة ينالون فيها من المسلمين ، فلن يتوانوا عن اهتبالها ، فهاهو سفير رسول الله ﷺ – والسفير له حصانة – يريدون أن يغتالوه ثم يدّعون أنهم لا يعلمون بمقدمه ، ولا بما جاء به ، ولم يدروا من قتله . وهذا

[٤١] – هو خراش بن أمية بن ربيعة بن الفضل الخزاعي ، كان حليف بني مخزوم ، قال ابن عبدالبر : " حضر خراش خيبر والحديبية وما بعدهما ، بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة فآذته قريش وعقرت جمله ، وأرادوا قتله، فمنعنه الأحابيش ، وذكر ابن الكلبي أنه كان حجاماً ، حلق خراش رأس رسول الله ﷺ عند المروة في عمرة القضية، قاله ابن حجر في الإصابة ٤٢١/١ .

ديدنهم في كل زمان ومكان . ألم يقتلوا مبعوث هيئة الأمم الكونت برنادوت ، وهو الذي جاء ليرسم حدود دولة إسرائيل ، وهم لا يريدون أن يحدوا دولتهم بحدود ، لما لهم من أطماع توسعية مستقبلية.

تحاول قريش أن تنال من المسلمين غرة :

قال ابن إسحاق : وحدثني بعض من لا أتهم ، عن عكرمة مولى ابن عباس عن ابن عباس رضى الله عنهما أن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلا منهم ، أو خمسين رجلا ، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا . فأُخذوا أخذاً ، فأتي بهم رسول الله ﷺ فعفا عنهم ، وخلى سبيلهم . وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل .

وهذا يدل على عين المسلمين الساهرة ليلاً ونهاراً ، حتى لا يأخذهم عدوهم على حين غرة ، وما حرب سنة ١٩٦٧م منا ببعيد . ويدل كذلك على عدم ركون المسلمين إلى عدوهم في ادعائه المسالمة ، وعدم حبه لإراقة الدماء ، فهم قوم غدر ، ألم يقل الحق سبحانه وتعالى في شأنهم :" (كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) [٤٢] فليس للمشركين عهد البتة ، وهذا هو الأصل ، فإذا ما عاهدوا فالوفاء لهم بقدر وفائهم بالعهد . فكيف إذا كان العهد عند من لم يحفظه ؟! بل عند من قال فيهم الله سبحانه وتعالى :"أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ، بل أكثرهم لا يؤمنون!" [٤٣]

عثمان بن عفان ﷺ ثاني سفير لرسول الله ﷺ إلى قريش :

النبي ﷺ يرسل إلى قريش سفيراً له يخبرهم بمراده :

ولما نزل ﷺ بالحديبية أحب أن يبعث رجلا من أصحابه إلى قريش يعلمهم بأنه إنما قدم معتمرا ، فدعا عمر فاعتذر بأنه لا عشيرة له بمكة فدعا عثمان فأرسله بذلك . وأمره أن يعلم من بمكة من المؤمنين بأن الفرج قريب ، فأعلمهم عثمان بذلك ، فحمله أبان بن سعيد بن العاص على فرسه – فذكر القصة – فقال المسلمون : هنيئا لعثمان ، خلص إلى البيت فطاف به دوننا ، فقال النبي ﷺ : إن ظني به أن لا يطوف حتى نطوف معا

[٤٢] – سورة التوبة ، رقم الآية ٧ .

[٤٣] – سورة البقرة ، رقم الآية ١٠٠ .

. فكان كذلك . قال : ثم جاء عروة بن مسعود" فذكر القصة . وفي رواية ابن إسحاق أن مجيء عروة كان قبل ذلك ، وذكرها موسى بن عقبة في المغازي عن الزهري، وكذا أبو الأسود عن عروة قبل قصة مجيء سهيل بن عمرو ، فالله أعلم .

ولما دعا النبي ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له . فقال : يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني . وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها . ولكني أدلك على رجل أعز بها مني :عثمان بن عفان. فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان ، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظمًا لحرمته .

فقد ذكر ابن سعد في طبقاته أن النبي ﷺ استدعى عثمان وقال له : " اذهب إلى قريش فأخبرهم أنا لم نأت لقتال أحد ، وإنما جئنا زواراً لهذا البيت معظمين لحرمته ، عنا الهدي ننحره وننصرف ".[٤٤]

قلت : ويستفاد من ذلك أن الإنسان يعرف طاقته وقدرته ، فالطاعة للقائد واجبة شرعاً، ولا يعفى منها أحد إلا المرضى وذوي العاهات ، ولا حرج أن يدل الجندي قائده على ما هو أفضل ، أو على من هو أقدر على إتمام العمل المنوط به ، ولا حرج أن يغير القائد اختياره لجندي أو قائد إذا وجد الحق والصدق في رأي من دله عليه .

ثم لماذا يترك رسول الله ﷺ الساحة لقريش لأن ترسل موفديها إلى المسلمين ، دون أن يكون للمسلمين دور في إرسال موفد من عندهم ، يطمئنون إليه في نقل مراد النبي ﷺ ، دون تحوير أو تبديل . وليتعلم المسلمون عمل السفراء ، وإخبار القبائل العربية الأخرى أن المسلمين أرسلوا إلى قريش بمرادهم من المجيء ، ولم يتركوهم لتخيلاتهم الشيطانية وظنونهم . وحتى يعذروا إلى ربهم سبحانه وتعالى إذا ما أراد أن يكون قتال على أبواب البلد الحرام . فهاهو رسول الله ﷺ يرسل إليه رجلاً من أكبر صحابته الكرام ، عثمان بن عفان ﷺ ، والذي كان خير مثال للسفير المسلم ، وكان عند حسن ظن النبي ﷺ وإخوانه الكبار من الصحابة الأبرار .

قال ابن إسحاق : فخرج عثمان إلى مكة ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص ، حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها ؛ فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلّغ رسالة رسول الله

---

[٤٤] – طبقات ابن سعد ٩٧/٢ .

ﷺ فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به ؛ فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان ابن عفان قد قتل [٤٥].

وشاع بين المسلمين في الحديبية بأن عثمان طاف بالبيت ، فقال الصحابة : يا رسول الله ! وصل عثمان إلى البيت فطاف ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : ما أظن عثمان يطوف بالبيت ونحن محصورون ، قالوا : يا رسول الله ! وما يمنعه وقد وصل إلى البيت ؟! فقال صلى الله عليه وسلم : ظني به ألا يطوف حتى نطوف [٤٦].

فلما رجع عثمان إلى الحديبية ، قال له الصحابة : اشتفيت من البيت يا عبدالله؟ فقال عثمان : بئس ما ظننتم بي ، لو كنت بها سنة والنبي ﷺ مقيم بالحديبية ما طفت ، ولقد دعتني قريش إلى أن أطوف فأبيت ذلك عليها ، فقال المسلمون : لرسول الله ﷺ كان أعلم بالله تعالى وأحسننا ظناً[٤٧].

قلت : وهكذا السفراء والممثلون ، يجب عليهم أن يلتزموا بالمهمة التي أسندت إليهم ، وألا يأتوا شيئًا – مهما كان هذا الشئ ، ولو كان عبادة من صلاة أو طواف – قد يشعر الكفار أنهم أسدوا إليه بهذا الشيء معروفًا ، ما كان ليناله لولا أنهم سمحوا له ، تكرمًا منهم أو ضيافة . فكيف بمن يذهبون سفراء أو مفاوضين ، فإذا بهم يستغلون فرصة كونهم كذلك وبين أعدائنا ، وفي أسواقهم ليشتروا أشياء من كماليات أو ما يشابهها ، مما يشمت الأعداء فيهم وفيمن أرسلهم وفيمن يمثلون . ألا ترون أن عثمان بن عفان رضي الله عنه لم يطف بالبيت الحرام ، وهو ابن مكة والذي درج على بطحائها ، رغم اشتياقه للبيت الحرام والطواف به ، لكنه أبى أن يشمّت العدو فيه ولا فيمن أرسله ، إنه الإيمان :" ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ ".

وشاية تصل إلى المسلمين بأن عثمان بن عفان رضي الله عنه قد قتل غيلة سبب بيعة الرضوان:

قال ابن إسحاق : فحدثني عبدالله بن أبي بكر – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل :" لا نبرح حتى نناجز القوم ". فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة . فكان الناس يقولون : بايعهم

[٤٥] – انظر تاريخ الطبري ٦٣١/٢ .

[٤٦] – المغازي للواقدي ٦٠١/٢ وما بعدها .

[٤٧] – المصدر نفسه ٦٠٢/٢ .

رسول الله ﷺ على الموت .وكان جابر بن عبدالله – رضى الله عنهما – يقول : إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت ، ولكن بايعنا على ألاّ نفرّ . فبايع رسول الله ﷺ ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلاّ الجدّ بن قيس أخو بني سلمة[٤٨] . فكان جابر بن عبدالله يقول:والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد ضبأ إليها[٤٩] ، يستتر بها من الناس . ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل .

وهذا يدل على أن ليس كل من كان في جماعة سوف يصبر على لأوائها ، وابتلاءاتها، فمن الناس من تضعف نفسيته ، ويتراجع حاله ، نظراً لتفكيره فيما وراءه من زينة الحياة الدنيا، أو إغراءات أجنحة المكر الثلاث – المال والجنس والمنصب – أو عدم استطاعته الوفاء بهذه البيعة واستلزاماتها، فلا يندهش أحد من الإسلاميين إذا ما رأى تراجعا أو نكوصا من فرد من الذين كانوا يُعدّون أو يشار إليهم بالبنان في يوم من الأيام ، وذلك لأنه مهما كان هذا الرجل ، لن يصل إلى درجة الصحابي في الفضل.

قال ابن هشام : بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ بايع لعثمان ﷺ ، فضرب بإحدى يديه على الأخرى .[٥٠]

قلت : وما ذاك إلا ليكتب لعثمان بن عفان ﷺ أجر بيعة الرضوان وهي التي يقول فيها الحق سبحانه وتعالى :" لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً."[٥١] وكذلك حنكة من رسول الله ﷺ واحتياطا من كون النبأ الذي ورد في احتجاز المشركين لعثمان ﷺ كاذباً . مع ما في هذه البيعة من إعلام للمسلمين ولغيرهم أن دم المسلم غالٍ ، ولا يقدر بثمن ، وقد يسبب إهراق دم مسلم واحد حرباً شعواء تستدعي أن يعدّ المسلمون أنفسهم لها فكانت البيعة على الموت أو على ألاّ يفروا ، حتى لا يغترّ أعداء اليوم بما عليه موقف الشعوب المقهورة في عدم الأخذ بالثأر لدماء شهدائها في شتى بقاع الأرض . وحتى يعلم القاصي والداني أن الأخذ بثأر المسلمين من

---

[٤٨] – هو الجد بن قيس بن صخر بن خنساء الأنصاري .. أختلف في أمره ،كان الجد بن قيس سيد بني سلمة (الخزرج) قال ابن حجر في الإصابة : " ويقال : إن الجد بن قيس هذا منافق ، روى أبو نعيم وابن مردويه عن ابن عباس أنه نزل فيه قوله تعالى :" ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني" ومن حديث جابر بسند فيه مبهم أن الجد بن قيس تخلف يوم الحديبية عن البيعة ، أخرجه ابن عساكر من طريق الأعمش" ، وقال ابن عبدالبر في الاستيعاب : "إن الجد بن قيس تاب وحسنت توبته ومات في خلافة عثمان". انظر الإصابة والاستيعاب لابن عبد البر .

[٤٩] – ضبأ إليها : لصق بها واستتر . قال ابن منظور في اللسان :" لطء واختبأ " وقال أيضاً : ضبأ استخفى . مادة ضبأ ١/١١٠-١١١ .

[٥٠] – سيرة ابن هشام

[٥١] – سورة الفتح رقم الآية ١٨-١٩ .

صميم الدين ، وليس إرهابا وليس تطرفا، فهاهو رسول الله ﷺ يبايعه المسلمون على الأخذ بثأر دم عثمان بن عفان ﷺ إن صدق الخبر . وكذلك عدم تهاون أو تكاسل المسلمين إذا ما سمعوا خبراً، قد يكون له مردود سيء على المسلمين، فأخذ الاحتياطات الضرورية لإعادة الحق إلى نصابه إن كان الخبر صادقا يعتبر من الحكمة ، حتى إذا ما تبيّن كذب الخبر لن يخسر المسلمون شيئاً ، وإن كان الخبر صادقاً كانوا على أهبة الاستعداد ، فيلقنوا الأعداء درساً قبل أن ينتشوا بفرحة ما اقترفته أيديهم بحق مسلم واحد . ألم تر كيف ندم يهود على ما اقترفته أيديهم في مجزرة المسجد الإبراهيمي في منتصف رمضان ١٤١٥هـ على يد طبيب ضابط حاقد، لكونهم ذاقوا مرارة العمليات الاستشهادية ردّاً على ما اقترفته يد مجرمهم ، وما الرد الإنتقامي على اغتيال الشهيد المهندس يحيى عياش ببعيد .

المفاوض الخامس (مبعوث قريش) :

قال ابن إسحاق :" قال الزهري : ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي إلى رسول الله ﷺ وقالوا له : إيت محمدا فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً . فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال : " قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ". فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام . وتراجعا . ثم جرى بينهما الصلح .

قلت : يفهم من ذلك أن الأعداء لا يرجى منهم صلح وهم يرسلون أعدا أعداء الإسلام ليفاوضوا عدوهم من المسلمين ، ألا ترى أن نتنياهو رئيس حكومة دويلة صهيون الأسبق قد وضع أرئيل شارون السفاح والذي لم تجف يداه بعد من دماء المسلمين في فلسطين ولبنان ومصر والأردن ، ليكون وزيراً لخارجية حكومته الليكودية الحقودة ، ليفاوض مفاوضيه من الفلسطينيين وغيرهم من العرب ، فهل يرجى من شارون – بعد أن أصبح رئيساً للحكومة الصهيونية الحاقدة – خيرٌ لشعبنا الفلسطيني؟ إن مثل شارون بالنسبة لشعبنا كمثل مكرز بن حفص قبل الصلح – مع اعتذاري لمكرز – الذي أرسلته قريش ليفاوض عنها رسول الله ﷺ . ألا ترى أن رسول الله ﷺ قال في مكرز بن حفص :" هذا رجل غادر" أي لا يرجى منه صلح أو يكون خير على يديه . بينما قال في سهيل بن عمرو عندما رآه :" قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل . كما يدل ذلك

على معرفة الرسول ﷺ التامة بالرجال الذين يرسلهم الأعداء للمفاوضة ، وهذا ما يجب أن يعلمه كل مفاوض قبل أن يدخل في مفاوضة عدوه، حتى يختصر على نفسه الطريق ، ولا يضيع الوقت – وهو الحياة – على شعبه ، بينما يخطط العدو ليكسب مزيدا من الأرض عن طريق إطالة أمد المفاوضات.

قال ابن حجر رحمه الله في الفتح : قوله : (إذ جاء سهيل بن عمرو) في رواية ابن إسحاق " فدعت قريش سهيل بن عمرو فقالوا : اذهب إلى هذا الرجل فصالحه ، قال : فقال النبي ﷺ : قد أرادت قريش الصلح حين بعثت هذا " . قوله : (قال معمر : فأخبرني أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل إلخ) هذا موصول إلى معمر بالإسناد المذكور أولا وهو مرسل ، ولم أقف على من وصله بذكر ابن عباس فيه ، لكن له شاهد موصول عند ابن أبي شيبة من حديث سلمة بن الأكوع قال : " بعثت قريش سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى إلى النبي ﷺ ليصالحوه ، فلما رأى النبي ﷺ سهيلا قال : قد سهل لكم من أمركم " وللطبراني نحوه من حديث عبد الله بن السائب . قوله : (قال معمر قال الزهري) هو موصول بالإسناد الأول إلى معمر ، وهو بقية الحديث ، وإنما اعترض حديث عكرمة في أثنائه . قوله : (فقال هات اكتب بيننا وبينكم كتابا) في رواية ابن إسحاق " فلما انتهى إلى النبي ﷺ جرى بينهما القول حتى وقع بينهما الصلح على أن توضع الحرب بينهما عشر سنين وأن يأمن الناس بعضهم بعضا ، وأن يرجع عنهم عامهم هذا " .

(تنبيه) : هذا القدر الذي ذكره ابن إسحاق أنه مدة الصلح هو المعتمد ، وبه جزم ابن سعد ، وأخرجه الحاكم من حديث علي نفسه . ووقع في مغازي ابن عائذ في حديث ابن عباس وغيره أنه كان سنتين ، وكذا وقع عند موسى بن عقبة ، ويجمع بينهما بأن الذي قاله ابن إسحاق هي المدة التي وقع الصلح عليها ، والذي ذكره ابن عائذ وغيره هي المدة التي انتهى أمر الصلح فيها حتى وقع نقضه على يد قريش كما سيأتي بيانه في غزوة الفتح من المغازي . وأما ما وقع في " كامل ابن عدي " و " مستدرك الحاكم " و " الأوسط للطبراني " من حديث ابن عمر أن مدة الصلح كانت أربع سنين فهو مع ضعف إسناده منكر مخالف للصحيح.

وقد اختلف العلماء في المدة التي تجوز المهادنة فيها مع المشركين : فقيل لا تجاوز عشر سنين على ما في هذا الحديث وهو قول الشافعي والجمهور . وقيل تجوز الزيادة ،

وقيل لا تجاوز أربع سنين ، وقيل ثلاثا. وقيل سنتين ، والأول هو الراجح والله أعلم . قوله : (فدعا النبي ﷺ الكاتب) هو علي بينه إسحاق بن راهويه في مسنده من هذا الوجه عن الزهري ، وكذا مضى في الصلح من حديث البراء بن عازب ، وكذلك أخرجه عمر بن شبة من حديث سلمة بن الأكوع فيما يتعلق بهذا الفصل من هذه القصة . وسيأتي الكلام عليه مستوفى في المغازي إن شاء الله تعالى . وأخرج عمر بن شبة من طريق عمرو بن سهيل بن عمرو عن أبيه " الكتاب عندنا ، كاتبه محمد بن مسلمة " انتهى . ويجمع بأن أصل كتاب الصلح بخط علي كما هو في الصحيح ، ونسخ مثله محمد بن مسلمة لسهيل بن عمرو .

أوهام بعض الرواة فيمن كتب صحيفة صلح الحديبية :

ومن الأوهام ما ذكره عمر بن شبة بعد أن حكى أن اسم كاتب الكتاب بين المسلمين وقريش علي بن أبي طالب من طرق ، ثم أخرج من طريق أخرى أن اسم الكاتب محمد بن مسلمة ثم قال : " حدثنا ابن عائشة يزيد بن عبيد الله بن محمد التيمي قال : كان اسم هشام بن عكرمة بغيضا ، وهو الذي كتب الصحيفة فشلت يده ، فسماه رسول الله ﷺ هشاما " قلت : وهو غلط فاحش . فإن الصحيفة التي كتبها هشام بن عكرمة هي التي اتفقت عليها قريش لما حصروا بني هاشم في الشعب وذلك بمكة قبل الهجرة ، والقصة مشهورة في السيرة النبوية ، فتوهم عمر من شبة أن المراد بالصحيفة هنا كتاب القصة التي وقعت بالحديبية ، وليس كذلك بل بينهما نحو عشر سنين ، وإنما كتبت ذلك هنا خشية أن يغتر بذلك من لا معرفة له فيعتقده اختلافا في اسم كاتب القصة بالحديبية وبالله التوفيق .

قوله : (هذا ما قاضى) بوزن فاعل من قضيت الشيء أي فصلت الحكم فيه . وفيه جواز كتابة مثل ذلك في المعاقدات والرد على من منعه معتلا بخشية أن يظن فيها أنها نافية ، نبه عليه الخطابي .

بنود صلح الحديبية :

أ – أن يعود المسلمون هذا العام ويعودوا من عام قابل ، حتى لا تقول العرب إن قريشاً أخبرت على ذلك وأخذت ضغطة . وهذا من قوله : (لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة) بضم الضاد وسكون الغين المعجمتين ثم طاء مهملة أي قهرا ، وفي رواية ابن إسحاق " أنه دخل علينا عنوة " ... وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل مكة علينا ، وأنه إذا

كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب : السيوف في القرب ، ولا تدخلها بغيره " وهذه القصة سيأتي مثلها في حديث البراء بن عازب في المغازي .

ب – أن من خرج من مكة فاراً بدينه إلى محمد ﷺ في المدينة المنورة على محمد وأصحابه أن يردوه إلى قريش ، أما من فر من المدينة المنورة إلى قريش ، فليس على قريش أن ترده . وذلك من قوله : (فقال سهيل : وعلى أنه لا يأتيك منا رجل – وإن كان على دينك – إلا رددته إلينا) في رواية ابن إسحاق " على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن يتبع محمدا لم يردوه عليه " ، وهذه الرواية تعم الرجال والنساء ، وكذا تقدم في أول الشروط من رواية عقيل عن الزهري بلفظ " ولا يأتيك منا أحد " وسيأتي البحث في ذلك في كتاب النكاح. وهل دخلن في هذا الصلح ثم نسخ ذلك الحكم فيهن . أو لم يدخلن إلا بطريق العموم فخصصن ؟ وزاد ابن إسحاق في قصة الصلح بهذا الإسناد :

ج – وأن تضع الحرب أوزارها لمدة عشر سنين ، بلا غدر ولا خيانة . وذلك من قوله في الحديث : " وعلى أن بيننا عيبة مكفوفة " أي أمرا مطويا في صدور سليمة ، وهو إشارة إلى ترك المؤاخذة بما تقدم بينهم من أسباب الحرب وغيرها ، والمحافظة على العهد الذي وقع بينهم . وقال ابن إسحاق في حديثه " وأنه لا إسلال ولا إغلال " أي لا سرقة ولا خيانة ، فالإسلال من السلة وهي السرقة ، والإغلال الخيانة تقول أغل الرجل أي خان ، أما في الغنيمة فيقال غل بغير ألف ، والمراد أن يأمن بعضهم من بعض في نفوسهم وأموالهم سرا وجهرا . وقيل الإسلال من سل السيوف والإغلال من لبس الدروع ، ووهاه أبو عبيد .

د – وأن من دخل في حلف محمد ﷺ فله ما لمحمد وصحبه وعليه ما عليهم ، ومن دخل في حلف قريش له ما لها وعليه ما عليها . وذلك من قوله : قال ابن إسحاق في حديثه . " وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، فتواثبت خزاعة فقالوا :نحن في عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم . وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل مكة علينا ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب : السيوف في القرب ، ولا تدخلها بغيره. "

فلما التأم الأمر ، ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر ، فقال : يا أبا بكر ، أليس برسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى! قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ! قال فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عمر؛ الزم غرزه[٥٢] ، فإني أشهد أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله . ثم أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ؛ ألست برسول الله؟ قال : بلى ! قال : أولسنا بالمسلمين؟ قال : بلى! قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ! قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : " أنا عبدالله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني". قال : فكان عمر يقول : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذي صنعت يومئذ ، مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حين رجوت أن يكون خيراً .

قلت : وهذا هو الدليل القطعي بأن ما أقدم عليه الرسول ﷺ من إبرام الصلح مع قريش المشركين ، إنما كان بأمر إلهي ، ألا ترى قوله ﷺ: " أنا عبدالله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني " إذاً هو أمر من الله " لن أخالف أمره" . وذلك حتى لا يتشبث أحد كائنا من كان بهذا الصلح أو الهدنة والتي كانت بأمر من الله ، فيشبّه ما أقدم عليه من المفاوضات مع العدو، إنما كان نسجاً على منوال صلح الحديبية . فصلح الحديبية بأمر من الله ، وهذا الصلح ليس بأمر من الله ولا بأمر من الشعب الفلسطيني، إذ لم يستشر الشعب الفلسطيني في شأنه حتى هذه الأيام ، ولم يدر به إلا بعد أن تم كل شيء ، بل ربما بعض الحكومات الأخرى وشعوبها قد علمت به قبل من يدَّعى أنه تم لمصلحتهم ؟!.

ولا ننسى أن صلح الحديبية كان بين رسول الله ﷺ وبين العرب المشركين، والعرب المشركون على ما هم عليه ، كانوا يستحيون من الكذب، ولا يتعاملون به ، وأما اتفاق أوسلو هو بين فئة من الشعب الفلسطيني – كثرت أم قلت – وبين يهود صهيونيين ، يعتبرون الكذب علينا ديناً لهم ، بل نقض العهود يعتبر جزءاً من كيانهم ، ألم يقل الحق في شأنهم : " كلما عاهدوا عهداً نبذه فريقُ منهم " [٥٣] والفريق الذي ينبذه منهم هو الفريق الحاكم الذي يستطيع أن ينبذ ، لأنه في سلطة الحكم .

قال : ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ فقال : " اكتب باسم الله

---

[٥٢] – الزم غرزه : الغرز: ركاب الرحل . وقوله : الزم غرزه : أي اعتلق به وأمسكه ، واتبع قوله وفعله ولا تخالفه ، فاستعار له الغرز كالذي يمسك بركاب الراكب ويسير بسيره . لسان العرب مادة غرز : ٥/٣٨٦–٣٨٨ .

[٥٣] – سورة البقرة آية ١٠٠ .

الرحمن الرحيم" قال : فقال سهيل : لا أعرف هذا ، لكن اكتب باسمك اللهم . فقال رسول الله ﷺ : "اكتب باسمك اللهم " فكتبها . ثم قال : " اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو". قال : فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ؛ ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. قال : فقال : رسول الله ﷺ :" اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله ، سهييل بن عمرو . اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ،يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليه ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة [٥٤]. وأنه لا إسلال ولا إغلال [٥٥]، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه – فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقدة قريش وعهدهم – وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك ، فدخلتها بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثاً ،معك سلاح الراكب: السيوف في القُرَب ، لا تدخلها بغيرها".

قلت: انظروا إلى عظمة الرسول ﷺ وكياسته وحنكته ، إنه ينظر إلى الأصل ، ولا يبحث عن أشياء ثانوية ، أو قشور لا تسمن ولا تغني من جوع .

والنظرة الأولى لهذا الصلح تدل على أن مجرد دخول قريش في عهد مع المسلمين يمثل اعترافا منها بالدولة الفتية والدين الجديد بعد حرب الإفناء الطويلة التي شنتها ضدهم. كما نفيد أن الصلح لا يكون إلا بين خصمين وندَّين ، وهذا اعتراف صريح من قريش بما كان عليه المسلمون من قوة ومن ندَّية أُجبر العدو على الاعتراف بها . وهكذا انتزع الرسول ﷺ اعتراف قريش بدولته .

أما ما فعله المفاوض الفلسطيني فهو عكس ما كان يرجى منه ، فقد اعترف بدولة الكيان الصهيوني دون أن تعترف هي بدولة فلسطين ، وهاهي تمنعه الآن من أن يعلن عن قيام دولته في الرابع من مايو أيار **١٩٩٩**م المقبل والتي كان من الواجب أن يكون الاعتراف بها يوم أن وقع الاتفاق .

---

[٥٤] – عيبة مكفوفة : "قال ابن الأعرابي : معناه أن بيننا وبينهم في هذا الصلح صدراً معقوداً على الوفاء بما في هذا الكتاب، نقياً من الغل والغدر والخداع ، والمكفوفة : المشرجة المعقودة ، والعرب تكني عن الصدور والقلوب التي تحتوي على الضمائر المخفاة بالعياب وذلك أن الرجل إنما يضع في عيبته حرَّ متاعه ، وصَوْنَ ثيابه ويكتم في صدره أخص أسراره التي لا يحب شيوعها ". انظر لسان العرب مادة عيب ٦٣٣/١-٦٣٤

[٥٥] – الإسلال السرقة الخفية ، والإغلال الخيانة ، والسِّلة : السرقة وقيل السرق الخفية، وقد أسل يسل إسلالاً ، ويقال للسارق : السلال . انظر لسان العرب مادة سلل ٣٣٩/١١-٣٤٩ ، ومادة غلل ٥٠٠/١١ .

وهنا لا بد لنا من وقفة متفحِّصة ، لما لهذه الهدنة من أهمية كبيرة في حياتنا التي نحياها في زماننا هذا ، وهذه النقطة هي طبيعة الهدنة التي عقدها النبي ﷺ مع مشركي قريش ومدتها ، ولقد كانت هذه المدة مدار خلاف بين علماء المسلمين في هذا العصر وغيره.

فمن العلماء من فهم أنه يجوز أن يُعقد هدنة إلى أجل بين المسلمين وبين أعدائهم ، ولا يجوز أن يُعقد صلح بينهما إلى الأبد ، لأنه لا مصالحة بين الحق والباطل . كما ذهب أخرون إلى أنه يجوز المصالحة بين المسلمين وبين عدوهم إذا كانت المصالحة في صالح المسلمين ، كما هو شأن الأقليات الإسلامية في بلاد الكفر .

ثم الخلاف الآخر في مدة الهدنة ، فمنهم من قال يجوز أن تكون الهدنة عشر سنين كما وردت في صلح الحديبية ولا حرج إن زادت على ذلك أو قلّت ، بشرط أن تكون المدة معلومة الأجل ما دام ذلك في مصلحة المسلمين . وذهب الآخرون إلى أنه لا يجوز أن يزاد على عشر سنين ، ويمكن أن ينقص عن ذلك ، وأما إذا أرادوا أن يزيدوا عن عشر سنين ، فيستلزم ذلك عقدا جديدا يكون بعد أن يُستوفى أجل العقد الأول وهو ما نسميه اليوم تجديد العقد .

ولذا يجب أن يفيد المسلمون من هذا الفهم للأحداث التي مرت مع رسول الله ﷺ في زماننا هذا ، وهل يجوز أن نوقع على عقد مصالحة مع عدونا ، وأن نسلم له بأرضنا وتراث أجدادنا ، والتي يعتبرها المسلمون أرض وقف ، لجميع المسلمين في جميع الأزمان والأوطان ، وليست لشعب بعينه ، وليس لأحد مهما كان ، أن يتعامل مع هذه الأرض المقدسة على أنها ملك له ، وضيعة من ضياعه ، يحق له التصرف والبيع والتنازل والتأجير إلى غير ذلك من الأمور التي يحتاجها الناس في حياتهم .

وانظر إلى الصلح الذي عقده رسول الله ﷺ مع مشركي قريش ، لقد استطاع رسولنا ﷺ أن يرفع يد قريش عن ملكيتها لمكة المكرمة وللكعبة المشرفة ، فبصلح الحديبية أصبحت مكة المكرمة ليست للمشركين ، ولا يستطيعون أن يمنعوا أحداً إلى الأبد من دخولها ، فهاهو ﷺ قد أخرجها من تحت سلطانهم ، وجعلهم يقرون بأن للمسلمين الحق في دخولها والطواف بالبيت الحرام ، فإن رجع الرسول ﷺ والمسلمون في هذا العام فإنهم لا محالة داخلوها في العام القادم بإذن الله ، وقد تم ذلك في عمرة القضاء .

ونقطة أخرى وهي أن مكة المكرمة لم تستثن من المفاوضات ، ولم تؤخر إلى آخر مرحلة منها ، بل قدمت على غيرها لأهميتها عند الله وعند المسلمين . وليس الأمر كذلك في اتفاق أوسلو ، فإن القدس تركت إلى آخر مرحلة من مراحل التفاوض والتي قد لا نصل إليها ، بل لم يستطع المفاوض الفلسطيني أن يجعل خصمه يقر بأن القدس مقدمة على الأمن الذي يتذرع به أو تساويه في الأهمية . فهاهو عدونا يحذر من أن يأتي المفاوض على اسم القدس في مفاوضاته . بل منح لنفسه الحق في أن يحاسبنا على ما نتفوه به ، دون أن يُحاسب هو على ما يقترفه من إعلانه ليل نهار أن القدس عاصمته الموحدة الأبدية ، بل ويضيف إليها كل يوم يمر من الأراضي التي يضمّها إليها وإلى بقية المستوطنات من أراضي الضفة الغربية.

ولا ننسى أن صلح الحديبية لم يلغ أي بند من بنود عقيدة المسلمين أو أي مبدأ من مبادئهم في أحقيتهم في الدخول إلى مكة المكرمة أنَّى شاءوا بعد عام الحديبية وبالطواف حول الكعبة المشرفة. بعكس ما وقع فيه المفاوض الفلسطيني – وقبله الزعماء المسلمين في مؤتمر دكار – من إلغاء الجهاد في سبيل الله ، بل والتنكر للجهاد والمجاهدين في سبيل الله ، بل وملاحقتهم أنَّى كانوا واعتقالهم أو محاكمتهم ، وما أوضاعنا التي نحياها في الأرض المحتلة بخافية على أحد اليوم .

قال ابن اسحاق : "فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد [٥٦]قد انفلت إلى رسول الله ﷺ ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل عليه رسول الله ﷺ في نفسه ، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم ، حتى كادوا يهلكون ، فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتابيبه ثم قال : يا محمد ؛ قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال : صدقت . فجعل ينتره بتلبيبه ويجره إلى قريش . وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته ... يا معشر المسلمين ؛ أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟! فزاد ذلك الناس إلى ما بهم ، فقال رسول الله ﷺ: " يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ...إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ،

[٥٦] – يرسف في الحديد : يمشي مشي المقيد بالحديد . وقيل هو المشي في القيد رويداً . وهنا مشي المقيَّد إذا جاء يتحامل برجله مع القيد . انظر لسان العرب مادة رسف ٩/١١٨-١١٩ .

وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله .. وإنا لا نغدر بهم .. قال فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول : اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب !! قال : ويدني قائم السيف منه ، قال: يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، قال : فضنَّ [٥٧] الرجل بأبيه ، ونفذت القضية [٥٨].

وعندما تم إملاء الكتاب شهد على الصلح أبو بكر الصديق وعمربن الخطاب وعلي ابن أبي طالب وعبدالرحمن بن عوف وعبدالله بن سهيل بن عمرو وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة وعن الجانب المشرك مكرز بن حفص وحويطب بن عبدالعزى. [٥٩]

وبنظرة إلى الشروط لعل بعض الناس يقول : إنها مجحفة بحقوق المسلمين ، مرضية لكبرياء قريش وحميتها الجاهلية ، وقد تساءل أصحاب رسول الله ﷺ مستنكرين ! لماذا يَرَدُّون إلى قريش من جاء منهم مسلماً ، ولا ترد قريش من جاءها من المسلمين مرتدّاً؟!

وفسّر رسول الله ﷺ هذا الشرط : بأن من ذهب إليهم كافراً، فلا ردّه الله ، وقد وُقي المسلمون خبثه . أما المستضعفون من المسلمين ، فستعيى قريش بأمرهم كما عجزت عن سابقيهم ، وستكون العاقبة لهم . ألم يكن النبي ﷺ ومن معه مستضعفين؟ ثم نصرهم الله وخذل قريشاً أمامهم ؟

ثم ألم يكن هناك منافع منظورة في هذا الصلح ؟ ألم يكن انضمام خزاعة إلى معسكر المسلمين نصراً كبيراً للرسول ﷺ وللدولة الإسلامية الجديدة ، ذلك أن جزءا كبيراً من الأحابيش الذين كانت قريش تعتمد عليهم يعدون من بطونها ، وبذلك ضمَّ محمد ﷺ جزءاً كبيراً من هذه القوة إلى جانبه ، وأضعف بذلك مركز قريش الحربي. [٦٠]

كما أن هناك ثمة فائدة كبيرة أخرى ، قد لا ينتبه إليها بعض المحللين، وهي أن الحروب المتصلة التي كان النبي ﷺ قد شنها على أهل مكة قد جعلت – حتى يوم عقد

---

[٥٧] – ضنَّ : ضَنِنت بالشيء ضناً وضنانة إذا بخلت به . الصحاح للجوهري ٢١٥٦/٦ .

[٥٨] – سيرة ابن هشام ٣٦٧/٣ ، وتاريخ الطبري ٦٣٤/٢-٦٣٦ . والواقدي ٦٠٧/٢-٦٠٩ ، ٦١١-٦١٢ ، وفتوح البلدان للبلاذري ٤١/١ ، ويمكن الرجوع إلى نص وثيقة الصلح في الوثاق لمحمد حميدالله ص ٥٨-٦٣ .

[٥٩] – سيرة النبي ﷺ لابن هشام ٣٦٧/٣ ، وانظر دراسة في السيرة للدكتور عماد الدين خليل ، الطبعة السادسة ، ١٤٠٢هـ١٩٨٢م ص ٢٣٠.

[٦٠] – انظر كتاب مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول للأستاذ أحمد ابراهيم الشريف ، الطبعة الثانية ، دار الفكر العربي القاهرة سنة ١٩٦٥م ، ص ٤٦٩ .

الصلح – القبائل التي تقيم جنوبي هذه المدينة حتى تخوم اليمن بعيدين بعداً يكاد يكون تاماً عن سلطان الدين الجديد .. ولكن هدنة الحديبية جعلت الاتصال مع بلاد العرب الجنوبية أمراً ميسوراً في ذلك الحين .[٦١] وقد كان لانتشار الإسلام في اليمن في الفترة التي أعقبت الحديبية أهمية خاصة من الناحية العسكرية ، فقد جعلت قريشا محفوفة بالمسلمين من الشمال والجنوب وبذلك تقرر مصير مكة وقريش نهائيا. [٦٢] هذا في الوقت الذي كانت قريش فيه قد توخت أهدافا سطحية ، دفعتها إليها العصبية الجاهلية ، وهي رد المسلمين عن زيارة البيت الحرام هذا العام ليعودوا إلى زيارته في العام المقبل ورد الذين يسلمون من قريش بدون رضى أوليائهم حتى لا يكثر عدد المسلمين ، وأن ينالوا بهذه الهدنة الاستقرار للتفرغ لتجارتهم وهو أهم هدف حيوي بالنسبة لقريش .[٦٣]

وبقدر ما كانت الفوائد التي جناها المسلمون من وراء هذا الصلح ، بقدر ما كانت الخسائر التي مني بها شعبنا على يد اتفاق أوسلو ومن شارك في إخراجه . لقد كان الغدر في بند واحد من بنود صلح الحديبية كفيلا بإلغاء الصلح كله ، وهذا الذي حدث بعد ذلك وكان سببا في فتح مكة . وهكذا لم يجد مجيء أبي سفيان ﷺ نفعاً، عندما جاء ليجدد العهد ويوثقه في المدينة المنورة ، وذلك لأن الطرف الآخر للمعاهدة كان يستطيع أن يحفظ حقه في إلغاء أو إمضاء بنود الإتفاقية ، كما يستطيع أن يجبر خصمه على احترام توقيعه بالقوة .

أما نحن اليوم ماذا عسانا أن نفعل بعد أن خرق عدونا الاتفاق ، ليس في بند من بنوده ، بل لم يُبق بنداً من بنود الاتفاقية إلا بند المحافظة على أمنه من قبل الطرف الآخر الموقع على الاتفاق ، أما هو فلا يمنعه اتفاق ولا عهد فهاهو يعيث في الأرض فساداً ، فيقتل هنا وهناك ، ويعتقل هنا وهناك عن المعابر أو المناطق التي تحت حكمه والتي تحت حكم غيره ، وما ذاك إلا لأنه يعلم أن خصمه وقع معه على الاتفاق وهو لا يستطيع أن يجبره على احترام وإمضاء ما وقع عليه ، لأنهما غير متكافئين ، لا في القوة ولا في أي موقع من مواقع المقابلة أو النزال . فما الذي سيمنعه من الإخلال بما ورد في الاتفاقية ، وبما يَرِدُ فيما يستقبل من اتفاقيات ، إن كان الذي يقابله ليس له به طاقة ، ولا

[٦١] – انظر كتاب الدعوة إلى الإسلام للمستشرق سير توماس أرنولد ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ورفاقه ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧١م ، ص ٥٧ .

[٦٢] – انظر كتاب الرسول القائد للقائد اللواء ركن محمود شيت خطاب ، الطبعة الثانية ، دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة ، بغداد ، ١٩٦٠م ، ص ٢١٢ .

[٦٣] – انظر المصدر السابق ص ١٩٠ .

يستطيع أن يغير من الواقع الذي يفرضه الخصم شيئاً ؟! ولذا هذا مصير من دخل في اتفاق أو مفاوضات وهو على غير قدرة بخصمه ليجبره على التنازل عما في يده ، أو احترام وإمضاء ما وقع عليه .

ثم هاجت في نفوس المسلمين مرة أخرى خيبة الأمل ، قد حُدّثوا أنهم داخلون في المسجد الحرام ، وهاهم أولاء قد ارتدوا عنه. لكن الرسول ﷺ يبين أنهم عائدون إلى دخوله كما وعدوا ، فهو لم يذكر أنهم يطوفون به هذا العام ...

وعرى المسلمين وجوم ثقيل لهذه النهاية الكئيبة ، وزاغت نظراتهم لما ركبهم من الحرج المفاجئ . فلما فرغ الرسول ﷺ من قضية الكتاب قال لهم : قوموا فانحروا ثم احلقوا – ليتحللوا من عمرتهم ويعودوا إلى المدينة – فلم يقم منهم رجل ! حتى قال ذلك ثلاث مرات! فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت أم سلمة : يا رسول الله أتحب ذلك ؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك ، وتدعوا حالقك فيحلقك . فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك . فلما رأى المسلمون ما صنع النبي ﷺ زال عنهم الذهول . وأحسوا خطر المعصية لأمره ، فقاموا – عجلين – ينحرون هديهم ، ويحلق بعضهم بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل الآخر لفرط الغم .[٦٤]

قال ابن اسحاق بسنده إلى ابن عباس رضى الله عنهما قال :" حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون فقال رسول الله ﷺ :" يرحم الله المحلقين" قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال :" يرحم الله المحلقين " قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : "يرحم الله المحلقين " قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال :" والمقصرين " فقالوا : يا رسول الله ، فلم ظاهرت الترحم للمحلقين دون المقصرين؟ قال :" لم يشكوا". [٦٥] ويفهم من ذلك أن المحلقين قاموا بما قام به الرسول ﷺ من حلق، غير شاكّين في أمر النبوة، ولا في عقد الهدنة مع قريش ، وأن ذلك كله بأمر من الله سبحانه .

وقال ابن هشام بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ أهدى عام الحديبية في هداياه جملاً لأبي جهل في رأسه بُرّة من فضة يغيظ بذلك المشركين . [٦٦]

---

[٦٤] – انظر المغازي للواقدي ٢/٦١٣-٦١٦ ، وفقه السيرة للشيخ الغزالي ص ٣٦٢-٣٦٣ .

[٦٥] – سيرة ابن هشام ٣/٣٦٨-٣٦٩ .

[٦٦] – المصدر السابق ٣/٣٦٩ .

ثم انصرف رسول الله ﷺ من وجهه ذلك قافلا ، حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ..." إلى آخر السورة . يقول الزهري : فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمِن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، ولم يكلِّم أحد في الإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر .

قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبدالله ، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف .[٦٧]

وقد فتح ذلك الصلح المجال أمام المسلمين لكي ينشطوا وينتشروا في الآفاق لكسب مزيد من الأصدقاء والحلفاء والمنتمين إلى الدين الجديد ، مستغلين من جهة أخرى فترة السلم التي أتاحتها شروط الحديبية .

ولم يقف الرسول ﷺ عند حد اعتماد الهدنة مع قريش لتأديب الأعراب ، بل نشط منذ أواخر السنة السادسة ، وحتى فتح مكة ، في توجيه دعاته وسفرائه إلى كبار أمراء العرب الوثنيين وزعمائهم ومشايخهم يدعوهم إلى الإسلام ، في نفس الفترة التي كان قد وجّه فيها سفراءه ومبعوثيه إلى أباطرة العالم وملوكه يعرض عليهم الدعوة التي بعث بها إلى الناس جميعا...[٦٨]

ولم ينس الرسول ﷺ أن ينتزع من هذه الفرصة الثمينة كل ما يستطيع انتزاعه ، فضلا عن كسب الناس إلى الإسلام وصداقتهم لدولته .. صراعاً ضد القوى الأخرى المضادة للإسلام كاليهود الذين تكتلوا في خيبر والمواقع المجاورة له ، والبيزنطيين وحلفائهم العرب الذين ازداد تكالبهم في الجهات الشمالية ، بازدياد نشاط الإسلام هناك، فضلا عن التجمعات القبلية البدوية المنتشرة في الصحراء والتي كانت تنتظر الفرصة السانحة لانزال الضربات بأتباعه . وهاهو الرسول ﷺ وقد فصم عقدها بهدنته مع زعيمتها قريش يوجه إليها السرايا تلو السرايا طيلة السنة السابعة ليصدها عن المضي فيما تبتغيه

[٦٧] – المصدر السابق ٣٧٢/٣ .

[٦٨] – انظر دراسة في السيرة للدكتور عماد الدين خليل ص ٢٣٢–٢٣٥ .

، وليشعرها بمقدرة المسلمين على العقاب .

وكأني بعدونا اليوم قد استفاد من دروس صلح الحديبية ما لم يستفد منه العرب اليوم ، ألم يعمد عدونا إلى إبرام صلح ما يسمى " كامب ديفيد " بينه وبين أكبر دولة عربية وهي مصر ، وهكذا استطاع أن يخرج أكبر قوة عربية من وجهه في صراعه مع العرب والمسلمين على أرض الإسراء والمعراج ، ثم تفرغ إلى بقية دويلات العرب واحدة واحدة ، فإذا به يغير على لبنان ويحاصر عاصمتها قرابة التسعين يوماً، ويدمر المفاعل النووي العراقي ماراً من فوق البلاد العربية ، ويقصف حمام الشط في تونس ، وموانئ الجزائر ، ويصل إلى باب المندب في الجنوب عند اليمن ، ويعيث في الأرض فساداً ولا يستطيع أحد أن يوقف شرَّه وطغيانه ، كل ذلك بعد أن أخرج مصر الكنانة من دائرة الصراع معه بصلح "كامب ديفيد". فهلا أخذنا نحن المسلمين الدرس من صلح الحديبية ؟! ونحن أولى بذلك .

هذا ما تسنى لي كتابته في هذه الأيام ، ولعلي أكتب في هذا الموضوع مستقبلاً حتى يفيد شعبنا مما كان عليه أسلافنا الغر الميامين رضي الله عنهم وأرضاهم ، لعلنا نستطيع تجاوز ما نحن فيه من محن وإحن . والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .